الفصل السادس

مبدأ الوفاق

المثل الأعلى الثانى الذى ينطوى عليه النشاط العلمى هو الوفاق والائتلاف . ليس العلم ابتداعا عقليا شخصيا قد يعجب هذا ولا يعجب ذاك ، أو يقنع واحداً ولا يقنع آخر ، وإنما قانونه أن يؤلف بين العقول فى كل مكان .

وليست هذه الرغبة جديدة : فقبل العلم قامت أديان وفلسفات لم تخلُ من رغبة فى التأليف بين النفوس و إشراكها فى تقديس حقيقة واحدة . ولكن ماالذى حدث لهذه المطامع الصافية ؟

فى هذه البلاد التى نعيش على أرضها أقبل دين « الدرويد »(١)

---

(١) « الدرويد » Les Druides قساوسة فى دين الغاليين القدماء ؛ ولم يكن لهم معابد ، وإنما كانوا يجتمعون فى الغابات ، وكانوا عند اشتداد الخطوب يقدمون ضحايا من البشر تكفيراً عن الذنوب . ولما دخل الرومان بلاد الغال قضوا على دين الدرويد ــ المعرب .

ودين « أوغسطس » [١] ودين « قيبيل » ودين « مِثْرا » لفتح العالم. وقد انقضت هذه الأديان كلها ولم تعدْ اليوم إلا موضوعا لدراسة المؤرخ : ونهضت المسيحية بدورها فقدّمت ـ كما ورد فى الإنجيل الرابع ـ « النور الحقيقى الذى يهدى كل إنسان يأتى إلى هذه الدنيا » . ولكن هذا النور لم يقبله الناس جميعا وإن كان قد قدم إليهم أجمعين : فلم تجتذب المسيحية إليها بنى إسرائيل ولا المسلمين ، ولم تستطع أن تحمى نفسها مما توالى عليها من هجمات المنكرين . وقد ظن رجال الإصلاح الدينى أن تجديد المسيحية يجعلها دينا عاما شاملا ، فكان كل ما وفقوا إليه أن شطروا العالم الكاثوليكى القديم شطرين . وعندئذ نهض مفكرون فأدلوا بدلوهم فى الدلاء ، فظهر دين « فلتير » [٢] ودين « روسو » [٣]

---

(١) « أوغسطس » Auguste إمبراطور رومانى من أقرباء يوليوس قيصر . كان اسمه أولا « اكتافيوس » ثم أبدل بأوغسطس . تولى الحكم الثلاثى مع « أنطونيو » و « ليبدوس » ثم استقل بالأمر بعد موقعة اكتيوم . وكان عهده من أزهى عصور رومة (٦٣ ق م ـ ١٤ م) ـ المعرب .

(٢) « فلتير » Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) من أكبر كتاب فرنسا . كانت حياته الطويلة حافلة بالأحداث والمغامرات . من كتبه التاريخية « عصر لويس الرابع عشر » و « شارل الثانى عشر » وله « القاموس الفلسفى » المشهور . وكتابات « فلتير » تغرى بالقراءة لطلاوتها وتنوعها ، ولما فيها من تهكم لاذع وما تفيض به من حب للحرية والتسامح ـ المعرب .

(٣) « روسو » Rousseau كاتب فرنسى كبير ، أولع بحب الطبيعة والخير والحرية ، وكان له أثر بعيد فى أهل عصره . أهم كتبه « العقد الاجتماعى » الذى كان له أثر مباشر فى الثورة الفرنسية . نقم روسو على ما رآه من فساد المجتمع فى زمانه فكان يحلم بإصلاحه والعودة بالناس إلى حال الفطرة الخالصة من شوائب المدنية

الطبيعى والمسيحية الجديدة عند « سان سيمون » [١] والدين الطبيعى عند «أوجست كمت» . وكانت رغبتهم جميعا أن يؤلفوا بين الناس، وتجلت عندهم جميعا أفكار طيبة كريمة جريئة ؛ ولكن ظهر أيضا عندهم جميعا عجز عن التوفيق بين النفوس والحصول على ذلك الإجماع على الرأى الذى هو شرط للشمول والكلية . لقد نظرنا إلى فرنسا ؛ ولكننا إذا نظرنا إلى بلاد العالم الأخرى شهدنا عين ما شهدنا فى فرنسا : إن الأديان الكبرى قد تنازعت الوجدان الإنسانى . ولكن حدث مفارقة مثيرة للأسى : فقد حملتها نفسُ رغبتها فى جمع الكلمة على مناضلة بعضها بعضا ، ودفعت إرادةُ الاتحاد بالناس إلى المعركة !

فهل كان الفلاسفة أسعد حالا ؟ قد نكون أميل إلى الاعتقاد بهذا ، مادام كثيرون من الفلاسفة يفخرون بأنهم يصطنعون العقل وحده . ولكن إخفاقهم ، على نحو ما ، كان أجلى وأخطر من إخفاق الأديان . ففى حين أن بعض المعتقدات تسوق ملايين من النفوس إلى التحمس لها والذود عنها ، وفى حين أن الدين البوذى والمسيحى والإسلامى قد غزا كل منها أرجاء فسيحة من العالم، نجد فى أثينا الصغيرة سقراط [٢] يصطدم

---

(١) « سان سيمون » Saint - Simon (١٧٦٠ ــ ١٨٢٥) مصلح فرنسى صاحب مذهب اشتراكى وفلسفة دينية وضعية ، وقد أخذ عنه « أوجست كمت » وتأثر به . ــ المعرب .

(٢) « سقراط » (٤٧٠ ــ ٤٠٠ ق م) حكيم اليونان الكبير . لم يودع تعاليمه الكتب والأوراق وإنما حفظ عنه تلاميذه ذكريات محادثاته مع الناس من =

مع السفسطائيين [١] وأرسطو مع أفلاطون . وفى زمن واحد وتحت سماء واحدة قامت الرواقية معارضة للإبيقورية ، والدجماطيقية معارضة للارتيابية [٢] ، والحرية مناهضة للجبرية ، والمذهب العقلى مناوئا للمذهب البراجماطيقى [٣]. وأشد ما يدعو إلى القنوط أن هذه المذاهب التى وقفت يعارض بعضها بعضاً فيها كلها ما يخلب النفوس، ويحملها على السير معها. أعتقد أن من العسير على إنسان أن لا يحب أفلاطون وأن يأبى أن يتابعه حتى فى السبل التى يسلكها فكره الجرىء . ولكن من الحق أيضا

= مختلف الطوائف . كان سقراط من أوائل من تكلموا فى خلود الروح وفى الواجب وفى العناية الإلهية . وهو مؤسس علم الأخلاق ومنشئ الفلسفة المثالية وفلسفة الصورة التى سيطرت على التفكير فى القرون الوسطى بجهود أفلاطون وأرسطو والإسكندرانيين . وقد بلغ أثر سقراط فى الأجيال الإنسانية أثر الأنبياء وأصحاب الأديان ـ المعرب .

(١) « السفسطائيون » جماعة من خطباء اليونان عاشوا فى القرن الخامس قبل الميلاد . لم يكونوا يحفلون بالحق من حيث هو فاستخدموا مواهبهم الكلامية فى مناصرة أية دعوى وترجيح أى رأى ، لا يبالون إلا بالنجاح والتغلب على الخصوم . وملخص مذهبهم إنكار ما يسمى بالحق أو العدل المطلق ، إذ الانسان عندهم مقياس لجميع الأشياء . وقد حمل سقراط على السفسطائيين وفند أقوالهم ـ المعرب

(٢) « الدجماطيقية » Dogmatisme و « الارتيابية » Scepticisme مذهبان متعارضان : الأول يرى للعقل الإنسانى قيمة مطلقة ويعتقد بإمكان الوصول الى اليقين . والثانى ينكر إمكان العلم ، ويشك فى معرفة الحقيقة معرفة يقينية ـ المعرب

(٣) المذهب « البراجماطيقى » Pragmatisme مذهب فلسفى نادى به « وليم جيمس » الأمريكانى ، وخلاصته أن جميع الحقائق الأساسية هى معتقدات عملية ؛ وأن فكرنا كله ينزع دائماً إلى العمل ولا يبرأ من الغايات ؛ وأن معيار الصدق والحق فى كل فكرة أو رأى هو المنفعة العملية ، وأن المعتقد يكون حقاً بقدر ما ينجح وفى الزمان الذى ينجح فيه ـ المعرب .

أن «سپينوزا»[1] إذا استولى على شخص أخذ بتلابيبه وساقه حتى نهاية الطريق الذى رسمه. ثم نقرأ «كانْت» و«أوجست كمت» وغيرهما فتملك عبقرياتهم نفوسنا فإذا نحن لها صاغرون. ولكن تعاقب اعتناقنا لهذه النظريات المتناكرة فخر للفلاسفة ودمار للفلسفة: لأننا قد سلكنا الطريق مؤملين أن نصل إلى نظرية واحدة لا يدانيها غيرها فيلتقى الجميع عندها إخواناً متصافين. غير أن المسالك التى كانت تبدو مؤدية إلى تلك النظرية قد بلغت من التباعد والاختلاف حداً يترك الإنسان، على شدة ما عانى من تعب وطول مطاف، أكثر زلزلةً وارتياباً، ويدع الناس أشد تفرقا وانقساما.

ومعقد الطرافة فى العلم أنه يبدو، وسط هذه الانقسامات، عاملاً فعالا على جمع الكلمة والوفاق. إن غير العلم يدعو إلى الاتحاد، أما هو فقد أوجده. فى العلماء كاثوليكيون وپروتستانتيون وإسرائيليون، وفيهم انجليز وألمان وفرنسيون. ولكن ليس هنالك هندسة كاثوليكية أو پروتستانتية أو إسرائيلية، ولا علم طبيعة ألمانى أو إنجليزى أو فرنسى! والفكرة نفسها سخيفة. وقد نتصور أقوالا دينية أوفلسفية تتصل

---

(١) «سپينوزا» Spinoza (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) من أكبر فلاسفة العالم. كانت حياته حياة زهد وتأمل. بدأ من فلسفة ديكارت وانفلسفة اليهودية وانتهى إلى القول بوحدة الوجود. قال فيه بعض الكتاب إنه «رجل سكران فى الله». أشهر كتبه: «الأخلاق» و «رسالة عن الله والإنسان والنعيم» و «الرسالة الدينية السياسية». ـ المعرب.

اتصالا وثيقا بالهند أو بالغرب ، ولكنا لا نتصور برهانا من براهين علم الرياضة يكون عند المسيحى غيره عند البوذى ، ولا نتصور تمحيصا تجريبيا مما يقوم به علماء الطبيعة يكون مقبولا عند المعجب بفلسفة «كانت» ولا يكون مقبولا عند المعجب بمذهب « سبينوزا ». بل إن الفلاسفة الذين يتجادلون اليوم فى أمر العلم وهل له قيمة مطلقة أم لا ، هم على الأقل متفقون على العناصر التى يتكون منها العلم ، وليس بينهم خلاف إلا على الحدود التى يقف عندها سلطانه ، أما هذا السلطان نفسه فلا يتنازعون فيه .

لقد بلغ من اعتيادنا لهذا الوفاق الذى مصدره العلم أن أصبحنا لا نُلقى إليه بالاً ، وأصبحنا نتكلم عنه كما نتكلم عن أمر بسيط جدا ، بل قد لا نتكلم عنه إطلاقا . ولكن لنرجع بالأمر إلى التاريخ الإنسانى : بذل المنقطعون للبحث غاية وسعهم ، مدى قرون عديدة ، لكى يكتشفوا مبدأ يستطيع أن يؤلف بين الناس ؛ وانفقوا فى هذا الجهد ما يملكون من مواهب وعبقريات ؛ وطرقوا كل باب من أبواب النفس . ولكن الوفاق المنشود لم يتحقق فى أى مجال ، بل عظم الخلاف واشتدت مرارته حتى ضاع الأمل فى حصول الاتفاق . وبينا الناس على هذه الحال إذ ظهر حدث جديد ، حدث عقلى ضاف ، أخرج دون قهر ولا اضطرار ، مجموعة من المعارف اليقينية مشتركة بين الناس ، وجعل حقيقة واقعة ما كان يبدو أمرا مستحيلا . كانت الحدود الدينية والفلسفية والسياسية والاقتصادية

تبدو على الدوام مفرقة للناس ؛ وإذا بحقيقة تظهر فتتجاوز تلك الحدود، لأنها لم تعد حقيقة شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس : إنها نور يهدى كل إنسان يأتى إلى هذا العالم ، كما ورد فى كلمة الإنجيل الرابع .

نتصور الآن المعنى الأخلاقى لكل هذه القواعد الدقيقة التى تسيطر على العمل العلمى . إذا كان العلم يفرض على نفسه هذه الاحتياطات الكثيرة فذلك لأنه لا يبغى أن يصل إلى الحقيقة فحسب ، وإنما يريد أن يبرزها للناس أجمعين . لايكفيه أن يؤمن الناس بما يقول ، بل يود ألا يصدقوه إلا عن أدلة ذات وزن ورنين. فهذه البراهين المضبوطة وتلك التمحيصات التى تمت بعد جهد جهيد لاتطيقه أحيانا روح الرقة أو الروح الشعرية ، هى أسمى صورة من صور الإيثار : إنها تنطوى فى وقت واحد على موافقة الغير على الأشياء الجوهرية ، والرغبة فى أن لاتكون تلك الموافقة موافقة المفاجأة ، ولا أن تكون تقربا طارئا ، بل أن تكون تعبيراً متينا عن مشاركة حقيقية .

إن احترام الإنسان لأخيه الإنسان وحبه إياه هما روح البحث العلمى ، لأن المرء لا يستطيع أن يهب غيره من الناس هبةً أثمن من أن يقدم لهم حقيقة تصبح ملكا لهم ، وتجعلهم — بأرفع ماتنطوى عليه نفوسهم — إخواناً متآلفين .

لاحاجة بنا إلى أن نتوسع فى بيان النهج الذى يسلكه هذا المثل الأعلى

المتضمن فى العلم، ولا القبلة التى يوجه حياة الناس إليها : يصبح التماس الوئام بالروح مبدأ من المبادئ العليا للأخلاق ، وتكون خطتنا الكبرى فى محبة بعضنا بعضا أن يقنع بعضنا بعضا فى أى مجال مهما يكن . إن الاتفاق القائم على القوة واهٍ ، لأن القوة لاتبلغ منا ما هو فى الصميم ؛ والاتفاق القائم على المصلحة لايمكن أن يكون إلا وضيعا جزئيا ، لأن الإنسان لايكون عظيما إلا بالأشياء المبرأة من المصلحة ؛ والاتفاق القائم على العاطفة أنبل ولكنه هزيل ، لأن العاطفة عمياء أحيانا . أما الاتحاد الذى منشؤه الرضى والإذعان لحقيقة أيدها البرهان السليم فأساسه متين وليس للصدفة عليه من سلطان .

إننا اليوم لم نتفق إلا على جملة من الحقائق المتصلة بالمادة و بالحياة . ومن نكد الحال أننا فى كل ما عدا ذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى البت فى مشكلات لم يمسها العلم إلا مساً رفيقاً . من أجل هذا كنا متفقين فى بعض الأمور مختلفين أشد الاختلاف فى أمور أخرى . وأقل ما يقال إن المثل الأعلى المنطوى فى النشاط العلمى يدلنا على الطريق الذى ينبغى أن نسير فيه لتلطيف حدة هذا الاختلاف : وهو أن نزيد عدد الحقائق اليقينية المشتركة ، وأن نطلب إلى العقل فى جميع المناظرات أن يعطينا مبدأ الاتفاق .

إنى ما زلت أذكر واقعة حدثت عقب الحرب العالمية هى فى نظرى مما يهز القلوب و يحمل مغزى كبيرا : كانت حفائظنا مستثارة لقرب عهدنا

بما أصابنا جميعا من أرزاء الحرب . وكان بعض الضالين من أصحاب النظريات يدعون إلى تذكر الاحقاد ، بل كان من الفلاسفة من جعلوا همهم النيل من فلسفات ما وراء الرين . وجاء «أينشتين»[1] إلى باريس ليبسط بنفسه مذهب النسبية . لا أدرى أصحيح ما قيل من أن بعض العلماء عندنا بدا لهم أن يعارضوا فى مجيئه ، ولكن الذى أعلمه ، لأنى رأيته بعينى ، هو أن «أينشتين» حين تكلم فى «الكوليج دوفرانس» لم يجد إلا فرنسيين عليهم علائم الجد والانتباه . ولم يعدُ أحد منهم يفكر ، منذ اللحظة التى بدأ الرجل فيها الكلام ، أنه ينتمى إلى شعب هو « عدو » لفرنسا : لأن العلماء الذين اجتمعوا فى حجرة «الكوليج» لم يكونوا يرون من عدو سوى الجهل والخطأ . كان فى النظرية المبسوطة ما يدهش ويحير الأفهام إلى أقصى حد ، ولكن الجمهور على الرغم من ذلك كان يصغى ويتردد ويتابع .

فى الخارج وفى مناظرات أخرى تبدو أيسر حلا نشهد تصادم المصالح وتصارع العواطف . لكن كل هذا الضجيج قد انعدم على عتبة الحجرة الضيقة التى احتوت رجالا كانوا فى طريقهم إلى الاتفاق على صورة عقلية للكون أكثر اتساقا . وأظن أن كثيرين كانوا يفكرون معى بأن العلم ، غداة المجزرة البشعة ، قد ثأر لنفسه ، وأعاد إلى الناس أسباب الأمل .

---

(١) « أينشتين » Einstein (ولد سنة ١٨٧٩) . عالم رياضى طبيعى من أصل ألمانى (وتجنس أخيراً بالجنسية الأمريكية) . اشتهر بنظريته فى « نسبية » الزمان . ــ المعرب .

الفصل السابع

مبدأ الحرية

المبدأ الثالث الذى يتضمنه الخلق العلمى هو احترام الحرية . وهذا الاحترام تنكره أديان كبيرة ولا ترى له مبررا : فالمسيحية الناشئة وإن كانت قدمت إلى العالم جملة من المبادئ هى من أجمل ما يمكن أن يعبر عن بغض العنف ، إلا أنها منذ نشأتها تشدد النكير على من لا يؤمنون ؛ ومنذ سيطرت الكنيسة فى قلب الامبراطورية الرومانية فرض قانون تيودوس (Code théodosien) على جميع الوثنيين الممارسين لشعائرهم عقوبة السيف البتار « gladio ultore sternatur » ؛ وفى القرون الوسطى كان الملاحدة يعاقبون بالموت وكان غير المؤمنين موضع تشنيع ؛ وانقض الصليبيون على المسلمين وعلى الألبيين « Les albigeois »(١) ؛ وفى القرن السادس عشر قامت المعارك بين البروتستانتين والكاثوليكيين ،

(١) فرق من خوارج المسيحيين فى جنوب فرنسا .

وكانوا مختلفين على تأويل بعض النصوص ؛ وفى القرن السابع عشر صدر فى فرنسا مرسوم ملكى يعاقب بالموت جميع المؤلفين الذين تنزع مؤلفاتهم إلى « إثارة الخواطر » .

درج الناس على أن يتحدثوا عن أعمـــال العنف هذه وأن يصفوها بأنها مجانبة للأخلاق : وهذا هو الأثر عينه الذى تتركه فى نفس رجل العصر الحديث . ولـكن العلم أكثر اطمئنانا ، وهو فى رغبتـه فى الفهم يرى فيها نتائج وخيمة ولـكنها منطقية لأخلاق مخالفة لأخلاقه . وهـذه الأخـلاق تنشأ من الاعتقاد بأن الحقيقة وحدها لها حقوق ، وأن الخطأ لايمكن أن يكون له حقوق . وحتى فى أيامنا هذه يذاع هذا المبدأ علانية فى منشورات بابوية مشهورة ! و يندهش الرجل غير المعتقد إذ يقرأ فيها أن حرية العقيدة والعبادات « زيغ وضلال » وأنها « استعباد النفس فى حمأة الإثم » . ولـكن لندخل فى روح النص : إن من يكتب ، عنده اليقين التام المطلق أنه مالك للحقيقة ! فـكيف يعترف للفرد بحقه فى سلوك سبيل الخطأ التى هى سبيل الضلال ؟ وكيف يقبل حرية الشر؟ فلو كانت الحقيقة التى يملكها حقيقة يقبلها الجميع طواعية لـكان كل التجاء إلى القوة أو إلى السلطة شيئا لا جدوى منه ولـكان بالتالى أمرا منكرا . ولـكن لما لم تكن من هذا القبيل ، وكان من اللازم مع ذلك أن يقبلها

الناس ما دامت هى الحقيقة ، فقد لزم تأييدها بمؤيدات خارجية . فالعنف فى مذهب كهذا لا يمكن أن يكون إلا شيئا لا مندوحة عنه و بداية للتساهل مع الشر؛ و إثبات المطلق يسوق منطقيا إلى إنكار الحرية.

ومن أجل هذا لم تكن الأديان وحدها هى التى تنكر الفكر أو تفتئت على حقوقه : رأينا من الناس من استعمل وسائل العنف فى الدعوة إلى آراء فلسفية عن تدبير المجتمعات ، ورأينا من صنّاع المذاهب الذين لا يشكون فى أنهم على حق من لا يترددون فى استعمال القوة لمقارعة خصومهم! وحتى حين تحول دماثة الخلق دون اصطناع السيف ، كثيرا ما نجد المخلصين من أنصار المذاهب المتعارضة يصطنعون ذلك العنف المقنّع الذى هو الحقد والذى هو السباب أيضا : يسبون خصومهم انتقاما لأنفسهم من عجزهم عن اقناع غيرهم . فكأن الحرية المنصوص عليها فى القوانين تهجرها الأخلاق الجارية هجرا . ترى « چوليان الرافض » يلعن «إبيقور»، و«أوجست كمت» يلعن «چوليان الرافض» ، وترى ملايين الناس ممن ليسوا «چوليان الرافض» ولا « كمت » يصبّون أمثال هذه اللعنات على من يسمونهم أعداء .

إن أكبر طرافة العلم أنه بقى دائما بعيدا عن لعن الخصوم ، بعيدا عن تكفيرهم ، وأنه جعل الحرية قانونه .

قد يتوهم بعض الناس خلاف ذلك : يقولون لا وجود لحرية العقيدة في علم الهندسة ولا في علم الكيمياء ، لأن هذين العلمين يفرضان الحقائق عينها على جميع العقول . ولكن هذا لعب باللألفاظ : إن العالم لا يفرض على أحد من الناس براهينه، وإنما تفرض البراهينُ نفسها بنفسها إذا كانت متينة . ولا شيء هو أكثر حرية من الإذعان الذي يمنحه العقل هاتيك البراهين .

لا ينبغي أن ننظر إلى العلم بعين تلميذ من تلاميذ المدارس ، فنعتقد أنه موجود كله في تلك المختصرات التي ليست إلا دفاتر مدرسية مؤقتة ، والتي من عيوبها أنها تلفت عقول الشبان إلى النتائج التي ظفِر العلم بها أكثر مما تلفتها إلى الظفَر نفسه . وإذا أردنا أن نكتشف روح العلم العميقة وجب أن ننظر في البحث من حيث هو بحث ، أي في اللهيب الذي هو روحه . وهذا اللهيب حر ولا يمكن أن يكون غير ذلك: يواجه العلماء الحقيقية التي تنفلت ، فيترددون ويتحسسون ويراجع بعضهم بعضا ، ولا يمكن أن يخطر ببال أحد منهم أن يحد من حقوق فكر ما . من المشهور جدا أن احتكاك الأذهان المتيقظة يؤدي يوما ما إلى انبثاق النور الذي يخلق الوفاق واجتماع الكلمة . وليست الحرية التي يعترف العلم بها للجميع تساهلا مكرها ، وإنما هي أساس النشاط العلمي ، وهي شرط

النجاح . ومن أجل هذا قد تحتدم المجادلات العلمية بسبب التلهف على الحقيقة أو الخوف من الخطأ ؛ ولكن استقلال الجميع فى الفكر استقلالا مطلقا لا يمكن أن يكون موضوع شك .

وقد يعترض البعض على هذا أيضا قائلين إن الحقيقة متى تم ظهورها وجب على الجميع أن يذعنوا لها صاغرين ، وأنه متى أقفل باب المناقشة لم يبق للحرية أثر .

إن الاعتراض مما يسترعى الأنظار . ولكن طرافة العلم هنا أيضا هى أنه لا يعرف شيئا يغلق دونه باب المناقشة : فى حين أن أديان المطلق وفلسفات المطلق تطلب قبل كل شىء مواقع حصينة يستطيع الفكر أن يقف عندها مرة واحدة وإلى الأبد ، نرى العلم لا يطلب إلا مواضع ارتكاز لوثبات جديدة على الدوام . وأجمل افتراضاته التى يرتب عليها معارفه مطبوعة بطابع « النسبى » و بالتالى بطابع « المؤقت » ؛ ولذلك لم يكن فى العلم شىء هو «حاسم» ، وليس فيه شىء إلا و يمكن وضعه موضع البحث . وما أبعد الساعة التى يستطيع فيها الهندسى أو الفيزيقى أن يقولا: « هذه الحقيقة قد كسبت وستغلق دونها أبواب الفكر » ! بل قد اعتدنا بالعكس أن نرى أشد الاكتشافات بريقا قد انبثقت من الاحتجاج على ما كان يبدو مستقرا مكين الاستقرار . ولقد شهدنا فى عصرنا هذا أمثلة

مشهورة حين تجاسرت نظرية « أينشتين » على مهاجمة فكرة المكان وفكرة الزمان . ومنذا الذى لا يذكر الضجة التى أثارها فى ذلك الحين بعض الفلاسفة بل و بعض العلماء أيضا ؟ كان يبدو أن مجددا جريئا قد جن جنونه فهاجم ما لا سبيل إلى مهاجمته . ومع ذلك فما أسرع ما أصبحت المجازفة الحمقاء باعتراف الجميع فتحا عظيما ! ولم يخطر ببال أحد حتى ممن صدمتهم النظرية أيما صدمة أن يرفع فى وجهها علم المعارضة باسم سلطة مقررة : إن من أشهر الأمور أن التجديدات العظيمة إنما مصدرها نوع من التمرد على ما يبدو حاسما قاطعا .

هذا التمرد أبو الفتوحات ، قد شعرنا به جميعا ملأ محاضرات «لانچڤان» عن العلم والحتمية . وقد تبينا فى الاحتجاج الذى وجهه على النظريات التى من شأنها أن تنتقص من العلم ، وفى الحل الجرىء الذى قدمه بإزاء صعوبة مخوفة لكى يصون للعلم وظيفته وهى أن يجعل الكون معقولا ، قد تبينا ذلك الجهد الذى يتقدم دون أن يخشى أن يقطع صلته بأفكار يزعم البعض أنها مستقرة ، ويجترىء على مناقشة ما كانوا يظنونه فوق مواطن النزاع . و إذن فلا يقولن أحد لنا إنه قد يجىء يوم يكون فيه العلم مطمئنا إلى نتيجة من نتائجه فيقول : « لا مناقشة فى هذه المسألة » و يعدل عن الحرية . إن كل شىء يمكن أن يوضع موضع المناقشة ،

لأنه لا علم إلا مما هو نسبي ، ومن أجل هذا ســتكون الحرية دائما ، فى مواجهة جميع المشكلات ، هى نفس قانون العلم .

على أن الوقائع فى هذه المرة أيضا تتكلم وتشهد بأن بين العلم والحرية وحدة لاتنفصم عراها : فبينما العقائد والمذاهب قد اعتمدت على العنف ظل العلم نقى اليدين من الدم المراق . وهـذا يبدو لنا فى غاية البساطة حتى نكاد نغفل عن أن نلاحظه . ولكن ينبغى أن نعرف كيف نندهش مما يُدهش: فى حين أن كثيرا من الجهود الكريمة لإقامة الوئام بين الناس قد أفضت إلى كثير من الاضطهادات وكثير من الحروب وكثير من الأحقاد ، استطاع الجهد العلمى فى كثير من المسائل أن يكفل الوفاق بين الأذهان دون أن يعمد قط إلى القوة . إنما تغلبت النظريات العلمية الكبيرة بما أوتيت من فضائل خاصة ، فلم تحتج إلى تأييد الحكام ولا إلى تأييد الأغلبيات لتعينها على السيطرة أو الذيوع ، واختصت بميزة فريدة: وهى أنها أدخلت النظام دون أن تمس الحرية .

فأخلاق العلم تتضمن احترام الفكر المستقل. ولا حاجة بنا إلى أن نبين التجديد الذى يحدثه فى مجالات أخرى انتصار هذا المبدأ الذى أعلن كثيرا وتجوهل كثيراً . لاحظنا فيما سبق أن من آمن بحقيقة مطلقة وسلطة معصومة لا يرى التسامح إلا شيئا لا محيص عنه . أما من أراد

أن يستلهم أخلاق العلم فيرى التسامح صورة متواضعة ناقصة من صور احترام الفكر . إن صبرنا على عما يبديه غيرنا من آراء مخالفة لآرائنا شيء جميل ؛ ولكنه قليل . ينبغي ألا نصبر على ذلك كما نصبر على شر لابد منه ، بل ينبغي أن نبتهج له ابتهاجنا لخير من الخيرات ، لأن حرية التعبير عن الآراء ، مهما يلحقها من شوائب التطرف ، تعين الحقيقة على الظهور . وأخلاق العلم تريد أن تصون هذه الحرية من عبث « الدجماطيقية » ومن عدوان الاستبداد ومن سطوة المال ، ذلك المال الذي نجده دائما على استعداد لأن يشترى وسائل التعبير عن الفكر أو يشترى الفكر نفسه .

ولنذهب أبعد من هذا فنقول إن المبدأ الذي يستلهمه العلم بالفعل لا يقتضي أن نسمح لغيرنا من الناس أن يقولوا ما يجول بخواطرهم فحسب، بل يتطلب أن ننصت إليهم ، لا أقول بدون تحيز ، بل بذلك القدر من التعاطف الذي يصاحب كل جهد لتمام الفهم : فإن العالم إذا أراد أن ينقض نظرية تبدو له مخالفة للوقائع المشاهدة إنما يبدأ بدرس تلك النظرية بما يستطيع من تعمق واستقصاء ، فيأخذ منها الصحيح النافع ، ويحبو له وهو يتجاوزها أن يقدم لها أطيب التحية ؛ فهو يحيي في خطأ اليوم حقيقة الأمس ، وهو يبذل الجهد ليبين ، في الدعوى التي تبدو له أمعن الدعاوى في البطلان ، الهمَّ المشروع الذي كان سبب وجودها . وليس هذا

منه تأنقا ذهنيا. ولكنه شدة عناية بأن لا تفلت منه أدنى ذرة من حقيقة ممكنة .

وهذا الجهد المبذول للفهم مع المشاركة الروحية والتعاطف أليس يمكن أن يمتد إلى جميع الأفكار ؟ يجوز لنا على الأقل أن نلاحظ أنه قد بدأ يثبت كيانه فى مجال من المجالات التى سادتها روح الجدال زمانا طويلا . بل إننا بالأمس ، رأينا كثيرين من العقليين يردون على ماوجه إليهم من هجمات ، فيقفون من بعض الأديان موقفا لم يكن بعد موقف العالم. نعم إن عظماء أصحاب الجدل من أهل القرن الثامن عشر كانوا على دراية بتاريخ المسيحية أكثر مما يظن غالب الناس . ولكنهم كانوا يهاجمون إذ يردون عن أنفسهم هجمات الخصوم : فرأى بعضهم أن الأديان إنما هى استغلال منظم لملكة التصديق عند الإنسان . فلما تقدم روح النقد وتقدم علم الاجتماع أخذت تتغير هذه الحال شيئا فشيئا . إن العالم الذى يفرغ لدراسة الأديان بروح العالم يرى فيها مبتدعات اجتماعية خطيرة لايستهان بها ، و يجعلها موضوعا لدراسة منزهة عن الهوى، ولو لم يكن يقبل ما فيها من عناصر فائقة للطبيعة أو عقائد لم يقم عليها دليل عقلى . و إذا رأى نفسه بإزاء معتقدات أو شعائر تصدم نزعته العقلية فلا يمكنه أن يقبلها، قال فى نفسه إن هذه وقائع اجتماعية ، وهى وقائع كان لها علل ، ثم يحاول قبل كل شىء أن يتمكن من فهم هذه الوقائع وأن يبرز عللها .

و إذا وجد نظاما يبدو له مشئوما فى الوقت الحاضر أخذ يتساءل عن الحاجات التى استطاع أن يقضيها فى الماضى . و بالإجمال لما كان العالم معنيا بأن يفهم فهو حذر من كل هوى قد يلقى على الحكم غشاوة . إن قليلى التصديق هم فى أغلب الأحيان الذين استطاعوا أن يوضحوا المهمة التى قامت بها الأديان فى تاريخ الإنسانية ، لأن الروح العلمى يذهب إلى أبعد من التسامح : فهو لا يقنع بتطليق الكراهية أو الازدراء باعتبارهما سبة للفكر ، بل ينكرهما أولاً بوصفهما عقبة من العقبات فى سبيل الذهن .

الفصل الثامن

مذهب الحتمية والتسامح

لم أعرض إلى الآن فيما أسلفت من حديث إلا للمبادئ المتضمنة فى تطور العلوم التى بلغت اليوم سن الرشد ، أى للعلوم الطبيعية والبيولوجية.

فإذا قبلنا أن ننظم علم الاجتماع فى مصاف تلك العلوم ظهر لنا مبدأ رابع وهو التسامح .

ذلك أن كل بحث اجتماعى يبدأ بالطبع بمذهب الحتمية (déterminisme) أعنى بالفكرة الذاهبة إلى أن الوقائع الاجتماعية كغيرها من وقائع خاضعة لقوانين . يستطيع الفيلسوف أن يضع فى كل فرد من الناس إرادة حرة مستقلة (autonome) كما أن المنجم يضع فى كل كوكب أو فى كل نجم إرادة عليا لإله من الآلهة . ولكن كما أن علم الفلك الحديث يفسر حركات القمر بقوانين متعقلة ، لا بمشيئة « أرتميس » [1] كذلك يأبى علم الاجتماع أن يفسر الوقائع الإنسانية إلا بمعنى قوانين متضمنة فى الأشياء.

---

(١) « أرتميس » Artémis اسم يونانى لديانا إلهة الصيد .

وليس من قصدى هنا أن أفتح من جديد باب المناقشة فى المعنى الميتافيزيقى للحرية ، فإنها مناقشة لا طائل منها بالضرورة : ولكنى أمضى إلى أبعد من هذا فأقول إننى أسلم بأن الجواب الوحيد الذى يمكن أن يوجه إلى أنصار الحرية هو تزايد القوانين الاجتماعية التى محصت تمحيصا حسنا . والواقع أن ما شاع عندنا إطلاق اسم الحرية عليه إنما هو جهلنا بالعلاقات بين العلل ومعلولاتها . ولما كان علم الاجتماع علما ناشئا ، ولم يمحص من هذا القبيل إلا عددا قليلا جدا من العلاقات فقد كان طبيعيا أن يبخل عليه المحتاطون والمتشككون بالثقة التى منحوها علم المادة . فواجبنا نحن أن ندفع هذه الشبهات بالبحوث والنتائج .

ولكن الذى أريد أن أبينه ها هنا أن كل تقدم فى مذهب الحتمية يؤدى بنا ضرورة إلى وقوف الإنسان موقف التسامح بازاء الناس جميعا.

كان أسلافنا يرون أن الرجل الذى يقترف الإثم حرٌّ فى أن لا يقترفه، وأننا نؤدى واجبنا نحوه حين ننبهه ونحضه ونوقفه على جلية أمره : فإذا أعرض عن النصح كان مخطئا ، وكان من حقنا أن نعامله معاملة الآثمين ؛ و إذا قضت العدالة أن يكفر عن سوءاته فليتزل به العقاب ، أو فليكن موضع الاحتقار على أقل تقدير .

ومن هنا جاءت الأخلاق الإنسانية التى ترفع قدر الصالحين وتمدد

بالطالحين ؛ ومن هنا كانت الأخـلاق « السماوية » التى تهب السماء للمصطفين وتجعل جهنم مأوى للمغضوب عليهم والضالين .

ولـكنا متى سلمنا بأن الجريمة نفسها واقعة محتومة فقـد وضح أننا إذا مقتنا الجريمة لم نعدْ نستطيع أن نمقت المجرم ، بل كان خليقا بنا أن نرثى له وأن نعده أول ضحايا الشر الذى قدمت يداه .

ولنضرب مثلا بصبى فى الخامسة عشرة من عمـره قد سرق فزجره القاضى وأرسله إلى إصـلاحية الأحداث : فهذا أمر منطق جدا مادام القاضى بصدد كائن حر . وإذا اقترف الصبى سرقة أخرى بعد ذلك بعام فمنطق أيضا أن يزجره القاضى مرة أخرى وأن يوقع عليه عقابا أشد .

ولـكن العالم الآخذ بمذهب الحتمية يلاحظ أن ذلك الصبى « المجرم » ابن لأب سارق ولأم سارقة ، وأنه قد فسد قبل أن تكون لديه فـكرة عن الخير والشر . والعالم يلاحظ أن الأماكن التى يسمونها «إصلاحيات» ليست منظمـة تنظيما حسنا ، وأنها تزيد فى فساد من يراد تقـويم اعوجاجهم . ويلاحـظ العالم أن نظام العقاب يخـلق مجرمـين عائدين (récidivistes) ! فماذا يصنع ؟ بدلا من أن يزدرى الطفل ، وبدلا من أن يوقع عليـه العقاب ، يطلب أن يُعنى المجتمع عناية أكبر باطفال المجرمين ، ويطلب أن تصلح إصلاحيات الأحداث ، وأن يوضع حـد

للإسراف فى العقاب . وبالإجمال يطلب العالم أن لا ننظر إلى الطفل نظرنا إلى « مجرم » يستحق المقت أو الاحتقار ، بل نظرنا إلى مريض يستحق الرحمة والعلاج .

يعترض الكثيرون بأن هذه النظرة المتسامحة قد يكون من شأنها أن تقلل سخطنا على الجريمة ، وأن تشجع أهل الشر على الغواية . ولكن الاعتراض ضعيف كل الضعف. هل قلّ فزعنا من وباء الطاعون منذ أن عدلناعن رأينا فى أن المصاب به آثم حل به عقاب الآلهة ؟ وهل أمسينا أقل فزعا أو أقل نجاحا فى كفاحنا للأوبئة منذ أن أصبحنا لا نكافحها بالصلوات لأپولون أو لإسقولاب (١) بل بالمستشفيات أو بعلم حفظ الصحة ؟

فاذا انتصرت الحتمية الاجتماعية ، وهو مايحق لنا أن نرجوه ، فإن المجتمعات ستظل تنكر الجريمة والكذب والسرقة ، وستمضى فى مكافحة تلك الرزايا . ولكنها لن توقع « العقاب » على الجانى ، بل ستداويه بعد أن تكون قد حالت بينه وبين الإضرار بالناس . ولن تشدد النكير على الجريمة ، بل ستهتم بتبين عللها ووجوه القضاء عليها. فماهو الدواء الناجع ؟ أهو ذم المدمن على الخمور ، أم إلغاء تعاطى الخمور بواسطة القانون ؟ أهو

---

(١) « اسقولاب » Esculape إله الطب عند اليونان .

التشنيع على التاجر الدنئ ؟ أم اجتثاث جرثومة التجارة الدنيئة ؟ أهو سب البغايا ؟ أم القضاء على البؤس الذى يغذى البغاء ؟

يعترضون أيضا بأن التسليم بفرض « الحتمية » قضاء على الأخلاق نفسها ، ومساس بالكرامة الإنسانية . وكأن احتمال أن يصبح الشخص مدمنا للخمور أو سارقا أو بغيا هو جزء من كرامتنا ! ولكن مع أن من الميسور دائما أن ترمى الأفكار الجديدة بمخالفة الأخلاق ، فإن أخلاق التساهل القائمة على « الحتمية » لها أسلاف نابهون يجب إسكاتهم قبل التعرض لنا : فهل كان أفلاطون مقوضا للأخلاق حين قال : « لا أحد يقترف الإثم عامدا متعمدا » ؟ وهل كان « سنكا » هادما للأخلاق حين قرر أنه ينبغى علينا أن لا نمقت الشرير بل أن نرثى لحاله ؟ وهل كان الإنجيل مقوضا للأخلاق حين أورد على لسان عيسى : « أبى اغفر لهم ، لأنهم لا يعلمون ما يصنعون » ! وأخيرا هل نقضى نحن على الأخلاق إذا اعتقدنا أن قانون المحبة شامل ، وأنه ليس لأحد الحق فى أن يستثنى منه أحداً ؟

ولا يقف المبدأ الحتمى عند الرفق بالمجرمين والتوفيق بين المقت الشديد للإثم والعطف الفعّال على مقترف الإثم . فإلى جانب أولئك الذين يسرقون و يقتلون والذين يظلون لحسن الحظ من الشواذ فلا يقاس عليهم

هناك كل من يخدمون قضية الجور تحت ظل القانون : أولئك هم الأنصار المتأخرون لروح الحرب أو لروح الطبقات وخصوم الحرية والممتهنون لحقوق الفكر .

وإذا كان من الواجب أن نناضلهم فإن أخلاق العلم تصرح بذلك وتدعونا إليه . ولكن النضال هنا أيضا يشوبه غير قليل من الحقد والضغينة : فكثيرا مايرخى الناس العنان لأهوائهم ، وبدلا من أن يقصروا بغضهم على المذهب السيء تراهم يمقتون من يخدمونه فيجعلونهم موضعا للازدراء والكراهية ويعاملونهم معاملة الأعداء . وأغلب الظن أن هذه المعاملة ليست أضمن الوسائل للعمل على انتصار الخير . ومن المحقق أنها ليست أجمل الوسائل لذلك . أما الروح الاجتماعية فينبغى أن تذكرنا أنه إذا كان لم يزل هناك أناس يؤمنون بقداسة الحرب أو الامتيازات ، فإن وجود هؤلاء الناس هو نفسه واقعة ولها عللها . فاذا أخطأوا فذلك لأن عبء الماضى قد أناخ بكلكله عليهم . وسواء أكانوا أثرياء أم أقوياء أم قليلى الأدب ، فإن الذين يرون بؤسهم لا يستطيعون أن يشعروا نحوهم إلا شعورا واحدا وهو الشفقة ، فلا يدور بخاطرهم أن يصرعوهم بل يريدون أن يصلحوهم .

من منا هو المعصوم حتى يصح له أن يترفع على المخطئين ؟ إذا كان من حسن حظنا ، بفضل ما نلنا من تربية ، أو ما حصلنا من دراسة ، أن نكون فى عداد من يرون بوضوح بعض المظالم الكبرى التى تشين مجتمعاتنا ، فمن أوضح الأمور أننا مع الأسف لا نرى جميع المظالم : فكما أن حكماء كثيرين قد عاشوا دون أن يروا فظائع التعصب فنحن نعيش من غير شك بين مظالم كبيرة لا نراها بل قد لا نلمحها ، وقد تكون عمالها أو شركاء فى اقترافها عن غير قصد ولا شعور . وقد يأتى يوم يقف فيه المؤرخون من أهل عالم أكثر حكمة من عالمنا موقف الدهشة لتلك الغشاوة على بصائرنا . ثم إنهم يكونون قد نشأوا نشأة علمية ، فيفهمون أن خطأنا إنما ورثناه من ماضٍ فُرض علينا كما يفرض علينا الأمر الواقع ، فيحكمون حكما شديدا على أخطائنا و يتسامحون فى الحكم على أشخاصنا .

وهذا العطف الذى سنكون بحاجة إليه يوما ما إنما تطالبنا روح علم الاجتماع بأن نمنحه جميع الناس . فهل يكون النصر لهذه الروح مع علم الاجتماع نفسه ؟ إن على الوقائع أن تجيب . إننى أعيد القول بأننى أعرف أن الناس لا يولون العلم الناشىء ، علم الوقائع الاجتماعية ، الثقة التى يمنحونها على الطبيعة أو علم البيولوجيا . ومن أجل ذلك رأيت أن

لاأعرض فى الفصول التالية لمبدأ التسامح المتضمن فى البحث الاجتماعى . وقد كان من حق على أقل تقدير أن أبيّن أنه إذا قدّر له أن ينتصر كما أؤمل فسيعيننا على أن نوفق بالعقل بين شعورين عظيمين يقودان العالم : وهما كراهية الشر ومحبة الناس .

الفصل التاسع

شرط النجاح

تمجيد الفكر ، والتماس الوحدة ، واحترام الحرية ، هى المبادئ الثلاثة الكبرى المتضمنة فى البحث العلمى ، وهى المثل الأعلى الذى صدر عنه العلم ، وأصبح له ناموسا يخضع له ويحيا عليه .

نعيد القول إنه مثل أعلى لم نبتدعه نحن وإنما هو المبتدع ، وإننا لا نقدمه كقوة جديدة صالحة فقط للعمل المستقبل ، ولكنه مستفاد من عمل قد تمّ من قبل ؛ ثم هو مثل أعلى لم يترجم فى الأقوال إلا بعد أن تُرجم فى الأفعال .

وقد يقول لنا البعض : وماذا بعد هذا ؟ إن كون العلم يتضمن بالفعل هذه المبادئ الثلاثة ليس يلزم عنه أن له الحق فى أن يسعى إلى فرضها على الناس دون أن يخرج عن حدود وظيفته .

ونحن موافقون . وليس من قصدنا أن نعود بعد الدوران إلى ما قلنا فى بداية الأمر . فمن الحق أن العلم ليس تشريعيا ولا يمكن أن يكون

تشريعيا ، وأنه يخرج عن مهمته إذا أراد أن يقوم بدعوة الناس إلى المبادئ التى خرج من صلبها . غير أن من الحق أيضا أن تلك المبادئ قد التحمت بالعلم التحاما يجعل فى ذيوعه إذاعة لها . ولما كنا نراه يزيد كل يوم ذيوعا فمن حقنا أن نلاحظ أن أخلاقاً « جديدة » قد أخذت تنطبع فى الوقائع وفى النفوس . وهذا كل مافد أردت أن أبينه .

صحيح أن أخلاق العلم هذه مازالت فى بداية أمرها ، وأنها تصطدم بقوى عتيقة تنكرها تارة وتحرقها نارة أخرى .

وهذا منشأ ماتراه من أمر عجيب : ففى حين أن العلم شىء عظيم جليل بلا نزاع ، نجد أن تدقيقات العلم مازالت قلقة كل القلق . وهى أحيانا بائسة غاية البؤس ، آثمة أشنع الإثم .

ولكن لنتخيل ما سيأتى به المستقبل يوم نرى تلك الأخلاق قد حملها تقدم الروح العلمى ، فانبسط سلطانها ، ولنتخيل أن العلم قد استخدم بالروح التى وهبته الحياة ، فإننا لن نرى مكتشفات الفكر تصبح على أيدى الناس أدوات للهلاك وآلات للطغيان والبؤس المادى والأخلاقى .

بما أن أخلاق العلم تمجيد للفكر ، فإن أصحاب التطبيقات العلمية (techniciens) أن يستخدموا الوقائع المقررة ولا القوانين الممحصة إلا للعمل على ذلك التمجيد . وسيتوخون مهمة تحرير الإنسانية من العبوديات الاقتصادية ، لا لزيادة اللذائذ المادية زيادة لا حد لها ، بل لكى

يتيسر لكل واحد وللمجموع أن يدخر المتع العقليـة أكبر قسط من الحياة . ولن يضعوا الذهن لحظة واحدة فى خدمة الآلة إلا لكى يضعوا الآلة فى خدمة الذهن ، وسيخلصون الإنسانية من هذا الخضوع للعـامل الاقتصادى الذى ينوء بعبئه أغلب الناس . فاذا تم لهم أن يخلصوهم من الرق فلن يبحثوا إلا عن الوسائل العلمية (techniques) لجعل المعارف المكتسبة فى متناول الجميع ، ولكى يتيسر لكل واحد أن يكون أكثر فأكثر وأحسن فأحسن كائنا مفكرا .

وبما أن أخـلاق العلم طلب للاتحاد فإن أصحاب التطبيقات العلمية لن يقبلوا أن توجه نتائج البحث البرىء ناحية الحقد والموت . وسيأبون أن يكونوا عمالاً فى خدمة الحرب ، ولن يطيب لهم أن يروا أن ما اكتشفوا لتحقيق الوئام قد استخدم للقتل ، بل سيبذلون لإذاعة الحقائق المكتشفة ما وسعهم من جهود ، حتى ينشأ ، من الوفاق بين الأذهان فى عالم عاقل ، وئام بين الإرادات والقلوب .

وأخيرا لما كانت أخلاق العلم احتراما للحرية ، فإن أصحاب التطبيقات العلمية لن يضعوا أنفسهم أبداً فى خدمة الاستبـداد فى أية صورة ظهر ، سواء كان استبداد القوة أو المال أو استبداد المذهب الذى يريد الافتئات على حقوق العقل . وسيكون قانونهم فى جميع التطبيقات التى تستطيع

اختراعاتهم أن تخدمها ، أن يحترموا استقلال الفكر وأن يناصروه ، موقنين أن القوة لا يحل لها بوجه من الوجوه أن تصاول الفكر .

أقول : لنتخيل هذا . والواقع أننا اليوم مضطرون إلى أن نتخيله ، ما دمنا نعيش فى عالم نرى فيه الشراهة والكراهية والعدوان تستخدم العلم مع التنكر له ، وتطلب إليه كل يوم أدوات للحقد والقهر ؛ ولكن خاصة كل مثل أعلى أن يتقدم للمستقبل . وإنما أردت أن أبين أن النتيجة الضرورية لأخلاق العلم هى رفع النشاط الإنسانى إلى منزلة عالية. وستتحقق النتيجة إذا انتصرت تلك الأخلاق . وهذه الأخلاق نفسها ستنتصر إذا دأب العلم والروح العلمى على توسيع مجالها وتوطيد دعائمها .

فهل لنا أن نأمل فى هذا التوسع ؟ إن ما شرفت به القرون الثلاثة الأخيرة من تقدم لم يسبق له مثيل يأذن لنا بآمال كبار ؛ ولكنى سأتجنب كل نبوءة متفائلة : فالإغراق فى التفاؤل قد يغرى الإنسان بالكسل . ولئن يكن صحيحا أن تقدم المعرفة العلمية لا يُدفع ولا يُغلب على مرور الأيام ، فما يؤسف له أنه غير مطرد ولا مستمر . وهذا أمر محقق لا نزاع فيه : فقد رأينا التقدم العلمى يقف عن الحركة أواخر الامبراطورية الرومانية وفى العصور الوسطى . ونلاحظ أننا حتى فى أيامنا هذه نرى الغلبة لنوع من المادية قد لا تكون أقل شؤما على انتصارات

الفكر . فلنكن إذن على شيء من الحيطة ، فلا نثق كل الثقة فيما يذهب إليه بعض الناس من أن العلم ستكون له الغلبة حتما وفى كل زمان بفضيلته الخاصة: فهو لا يستطيع أن يعيش ككل المبتدعات الإنسانية إلا بجهود من سيخدمونه . فعلينا إذن أن نسعى لتجنب الإنسانية عهودَ الوقوف أو التقهقر ، ولنجعل الانتصار للروح العلمى ولأخلاق العلم والمثل الأعلى الذى تحمله فى نفسها .

ولكننا نلتقى هنا بالاعتراض الأخير : هل هذا المثل الأعلى على نحو ما عرفناه يبلغ من العلو والنبل والكمال درجة يستولى بها على الإنسان كله ويرفعه ويرضى حاجات الشعر فى نفسه حتى يُثير فى قلبه الحماسة ؟ وهل يقدم إلى الوجدانات الفردية ذلك الشعور العميق بالجمال الذى يمنح وحده التوثب والفرح ؟

إنى أعرف أن كثيرين ينكرونه ، وأعرف أنه حتى بين الذين يقبلون أخلاق العلم سيكون هناك أكثر من واحد يرون أن هذه الحكمة لم تبلغ بعد إلا نصف حكمة ، وأن حياة النفس فى عمقها تتطلب غذاء آخر . ولكنى أحسب أن الأمر لا يعدو أن يكون وهما راجعا إلى سلطان الآراء القديمة : فإننا إذا تو خينا أن ننفذ إلى روح العلم ألفيناه يقدم إلينا أنضر البهجات ، ويقدم نظرةً إلى الحياة أقدر من غيرها على إثارة حماستنا ونشاطنا .

الفصل العاشر

بهجة المعرفة - بهجة الاتحاد - بهجة الانطلاق

صحيح أن المثل الأعلى الذى عرّفناه شديد على النفوس من بعض الوجوه : فإن الحقيقة لا تنكشف للعالم إلا ببذل جهد شاق . والعلم لا ينكشف لغير العلماء إلا بعد البحث الطويل . ولكن أى المباهج يمكن أن توازن بتلك التى يأتينا بها هذا الجهد وذلك البحث ؟ قد وصف لنا « لوكريتيوس »[1] نشوة الجهد فى شعر له مشهور ، ووصفها عالم من علماء عصرنا وصفا فيه حرارة وتأثر . وصف « ترّمييه » Termier بهجة أولئك الباحثين ذوى النفوس المشرقة المبتهجة وإن لم يفهمهم الناس ،

---

(١) « لوكريتيوس » Lucrèce شاعر لاتينى كبير ، ولد سنة ٩٥ ق م : استوحى قصيدته « فى الطبيعة » من المذهب الجبرى الذى دعا إليه الفيلسوف اليونانى « إبيقور » ؛ ولكن تحمس الشاعر لجلال القوى الطبيعية ، وكراهيته للخرافات ، ومحبته للإنسانية ، وسعيه إلى أن يدفع عنها الخوف ، ليعيد إليها الراحة والطمأنينة ، كل هذا قد جعل من قصيدة الشاعر درة من درر الأدب اللاتينى — المعرب .

« بهجة جاليلى[١] حين رأى تحت قدميه حركة الأرض ، وبهجة كبلر[٢] وهو يرهف السمع ، فى سكون الليالى الجميلة ، إلى الصوت البعيد ، صوت دوران الأفلاك ، ذلك الدوران الذى صاغ قوانينه الدقيقة ، وبهجة نيوتن حين رأى ثبوت شمول الجاذبية فى كل ماحوله من العالم ، ورأى علم الفلك كله يصبح مشكلة بسيطة من مشكلات الميكانيكا» .

ما منشأ هذه البهجة ؟

تنشأ من شعور المرء بأنه حين يستكشف الحق يؤدى رسالة هى أرفع ما استعد لأدائه إنسان . يقول حيث لم يكن يوجد إلا حيرة وظلام : « فليكن النور ! » و يطلع النور على الناس . فهذه الرغبة فى الفتح المطوية فينا ، والتى دفعت كثيرا من الأفراد والشعوب إلى كثير من أعمال العنف والجور ، تجد فى العلم وسيلة تشبعها وترفعها : ذلك أن الفكر حين

---

(١) « جاليلى » Galilée (١٥٦٤ — ١٦٤٢) فلكى رياضى طبيعى وفيلسوف إيطالى ؛ مكتشف عدة قوانين علمية كقانون الرقاص وقانون سقوط الأجسام . . . وهو صاحب فلسفة المادة ذات طابع ميكانيكى ، وأحد السابقين إلى إقامة المنهج الحديث للعلوم الفيزيقية والكيميائية — المعرب .

(٢) « كبلر » Kepler (١٥٧١ — ١٦٣٠) فلكى ألمانى كبير ؛ صديق « تيكو — براهى » ؛ جهد لإصلاح مذهب « كبرنك » فى علم الفلك ، وسعى إلى التمكين له بين العلماء ؛ وكثيرا ما مزج « كبلر » نظراته العلمية بلمع صوفية — المعرب .

يقيم النظام فى العالم يسيطر عليه . ويتناول الواقع الذى كان يبدو باتساع مداه واختلاف ألوانه شيئا يستعصى على التحليل ، فيطبعه بطابعه ويبسط عليه سلطانه . وتأتى الوقائع راضخة فتنضوى تحت لواء الافتراض الذى كان يبدو هزيلا ، فأصبح له الحكم والسلطان .

تلك بهجة بلغ من صفائها وامتلائها أن جعلها بعض المفكرين ميزة انفردت بها الآلهة . وقد كانت خاصة العظمة عند الموجود الإلهى فى ذهن اللاهوتيين والفلاسفة هى أنه مستمتع بسعادة المعرفة فى كمالها لا يعوزه منها شىء . ولكن الذى يضفى على بهجة العالم سحرا أكبر مما للبهجة التى تنسبها الميتافيزيقا إلى الآلهة أنفسهم ، هو أن سعادة المعرفة يصحبها سعادة البحث ، أعنى ذلك الشعور بالإبداع الذى يصحب سيطرة الفكر على المادة .

يقف الباحث بإزاء الواقعة التى تتهرب ، والعلاقة التى تتحجب ، فينبثق الافتراض فى ذهنه . ويكون أول الأمر افتراضا مزعزعا ثم يتضخم ويقتحم الواقع : وتؤيده تجربة وتعارضه أخرى ، ويسنده نص ويصدمه آخر . ويحدث أحيانا أن ما كان من الصيغ رائقا يبدو بعد ذلك قفرا خداعا : فنرجع على أعقابنا ، ونقدم على سلوك طريق جديد . وقد يحدث أيضا أن يتذرع الذهن بالعناد ويجسر على معارضة الظاهر ، ويعيد التجربة التى خيبت الآمال ؛ وإذا الوقائع وقد استضاءت فجرت على أحسن ترتيب .

فما عسى أن يكون الزهو الهزيل ، الذى يخالج القائد الحربى الذى تصفق له الجماهير الساذجة ، بالقياس إلى هذا الانتصار الذى يكون للفكر على الكون ؟ وما قيمة بهجة الفاتح حين يستولى على مدينة أو على قطر ، إلى جانب البهجة التى تكون لعلماء الفلك الذين استطاعوا بقوة الذهن وحدها ، أن يغلبوا اللامتناهى فى العظم ، وإلى جانب بهجة علماء الطبيعة أولئك الذين ساروا بالتجربة وبالحساب فى الطريق إلى التغلب على المتناهى فى الصغر ؟

كلا . ينبغى ألا نرثى لحال الباحثين الذين يترددون ويتحسسون ويواصلون البحث ؛ فهم كما يقول « ترميبه » أيضا : « حسبهم حق إذا لم يجدوا ما كانوا يطلبون أنهم قد طمعوا فى النشوة العظمى ، وأنهم قد عاشوا فى الحماسة والأمل وفى الحلم ، وإنه لحلم برىء براءة ليس لها حد : فهم عاشقون مخلدون » ؛ ومهما يكن فى جهدهم من مشقة ، فإنه يحمل فى نفسه جزاءه الحسن ؛ وما من شىء يستولى على النفس كلها كالطلب الشديد للحق .

قد يقال إن هذه البهجات ميزة انفرد بها العلماء أنفسهم . وهذا حق : فكما أن القس يتصل بالأمور المقدسة على وجه أكمل ، كذلك يستمتع الباحث أقصى استمتاع بسعادة الفتح : إنه اختار النصيب الأوفى . وقد يكون من الخير أن نقول هذا فى أيامنا هذه إذ نرى كثيرين جدا من

الشبان تغريهم نفعية عامية ، فيتأثرون بهـا فى اختيار طريق حياتهم . ولـكن البحث يدخر لجميع من يقبلون عليـه مُتعاً من هـذا القبيل . وليس انفعال من يستمع إلى سمفونية موسيقية كانفعال الموسيقار الذى ألفها ، ولـكن يمكن أن يقاربه : وكذلك كل من يرغب فى المعرفة ، وكل من يدخل حظيرة العلم ينال نصيباً من مباهج العالم . فهو كالعالم فخور بالفهم ، وهو كالعالم يشعر بهزة فى النفس ، إذ يرى الصورة المعقولة للعالم تخلص شيئا فشيئاً من الظلام .

إن ما يصح أن نوجهه اليوم إلى تعليم العلوم من مآخذ ، هو أنه كثيراً ما يعرض فى أسلوب جاف جـدا النتائج التى تم غزوها ، ولا يدلى بالبيان الـكافى عن الفتح نفسه ، وعن تردده وتعثره ، وعن كل ماينطوى عليه سيرُه من أنباء درامية مثيرة . وقد يكون من الأناقة أن نُغفل ذكر الـكفاح ، وأن نقتصر على إظهار الانتصار . ولـكننا لو أُطلعنا غير العارفين على هموم البحث ومباهجه لزاد تقديرهم للجمال الحىّ جمال العلم . وقد يجىء يوم تـكون فيه الإنسانية المتنبهة شديدة التحمس للمعارك الـكبرى التى يشنها الفكر على المجهول ، كما أنهـا اليوم ما فتئت تتحمس للمعارك الحسيسة التى يشنها الإنسان على الإنسان .

obeikandi.com

وليست بهجتنا بشعورنا بأننا نشارك من يفكرون بأقل من بهجتنا بالمعرفة . مهما تكن قوة الأنانية الإنسانية فإن الرغبة فى الاتحاد قد بلغت من الرسوخ فى نفوسنا أن سيطرت على تاريخنا كله . وسواء لاحظنا الناس فى القبيلة أو فى الأسرة أو فى المدينة أو فى الوطن أو فى الكنيسة أو فى الرابطة المهنية ، نجدهم دائما يطلبون أوضح معانى السعادة إلى الشعور الذى يقربهم إلى الغير : ويكون المرء سعيدا حين لا يجد نفسه وحيدا ؛ ويكون الإنسان سعيدا إذ يحس نفسه متعاونا تعاونا تاما عميقا مع أمثاله من الناس ؛ ويكون سعيداً حين يشاركهم فى أداء مهمة أو فى انفعال فنى أو فى الإيمان بمثل أعلى ؛ ويجد المرء فى تفانيه فى المبتدعات الاجتماعية الكبيرة ، ويجد حتى فى التضحيات التى يمكن أن يبذلها للغير شعورا سعة وإثراء ، ويجد بهجة حياة أعمق .

ومن أجل ذلك كان أحكم الناس هم أولئك الذين أحسوا أكثر من غيرهم ببؤس الأنانية ولذة الوفاق ، وأولئك الذين قالوا جهرة وفى قوة « ليحب بعضكم بعضا ! » . غير أن أكبر عيوبنا أن يبقى ذلك القانون حرفاً ميتا ، وأن يصبح الحب وكأنه محصور فى زمرات جزئية إذا تعداها انقلب فيه مبالاة وازدراءً أو كراهية : تكون الأسرة متحدة ، ولكنها تنهض بعداوة أسرات أخرى ؛ وتكون المدينة متحدة ولكنها تصاول مدنا أخرى ؛ ويجمع الوطن شمل أبنائه ، ولكنه يدفع بهم إلى مناهضة

أوطان أخرى ؛ ويحث الدين أنصاره على المحبة ، ولكنه يحثهم أيضا على كراهية الأديان المجاورة أو ازدرائها .

وحتى حين يوجد من الناس من يستطيعون أن يتحرروا من جميع هذه الأفكار التى تقضى على نزوع الإنسان إلى الإنسان ، وحتى حين لا يطمحون إلا إلى محبة الإنسانية بأسرها ، يتساءلون ماعسى أن يصنعوا لكى تكون مثل تلك المحبة شيئا آخر غير صيغة لفظية مفرغة خاوية . قال لى أحد أساتذتى فى مدرسة المعلمين ، وهو واحد من أكرم من عرفتهم من الناس ، وهو الأستاذ « روه » Rauh [1] ، قال لى يوما : « تلك الشعوب وأولئك الناس الذين يعيشون فى الطرف الآخر من العالم ، والذين لا أعرفهم إلا بالكتب ، ماذا ينبغى أن أفعل لأحبهم حبا لا يكون لفظيا؟ وهل من سبيل إلى تصور مشاركة بينهم و بينى ، و بينهم و بيننا ؟ » .

هذه المشاركة الروحية ينشئها العلم ، كما رأينا ، و ينشئها دون جهد ومن أول مرة . يستطيع العالم أن يقول للحقيقة التى أقامها راسخة الأركان ، سواء كانت هينة أو جليلة : « اذهبى ! » . والواقع أنها تجتاز الفضاء ، وتمضى محلقة فوق جميع الاضطرابات الناشئة عن تصادم المصالح والأهواء ، حتى تجد هنالك فى الطرف الآخر من الكوكب فكرا آخر يحسن لقاءها و يفهمها و يجعلها له مذهبا : وعلى هذا النحو يقوم الاتحاد الذى كان يبدو أول الأمر مستحيلا ، وعلى هذا النحو يستطيع العالم أن

(١) « روه » (١٨٦١ ـ ١٩٠٩) فيلسوف أخلاق فرنسى ؛ كان تعليمه وكتبه أثر عميق ؛ سعى إلى بناء مذهب قائم على التجربة الأخلاقية ـ المعرب .

يتذوق بهجة الشعور بأنه كان من صناعها : فهو رجل الإنسانية فى مهمته المهنية التى يؤديها كل يوم .

ولا يذهبنّ أحد إلى الاعتراض بأن عدد من يعرفون الحقائق العلمية، حتى فى جملتها ، لم يزل قليلا . إن من الحق المؤسف أن نجد حتى فى بلادنا الغربية أن عددهم قليل ، وأننا نترك شطراً كبيرا من النوع الإنسانى فى جهل تام بما هو فى نظرنا جوهر العظمة عند الإنسان الحديث . إن مهمة الشعوب الممتازة أن تنشر كنوز الحقائق المكتسبة فى أرجاء العالم . ولكن العالم إنما يقوم بمهمته حين يقيم قانونا أو علاقة على نهج يقبله الناس جميعا . والجهد نفسه الذى يتكلفه لكى يكون لبرهنته قيمة كلية يقتضى رغبة فى الاتحاد العام ؛ إن مباهج أعظم مشاركة روحية إنسانية هى حظ من يبحث .

أينبغى أن نتحدث أخيرا عن مباهج الحرية ؟ لقد رأينا أن العلم لا ينمو إلا فيها وبها . أهناك حاجة إلى أن نبسط القول فى إثبات أن النمو فى الحرية هو نمو أيضا فى البهجة ؟ أعرف أنه قد وجد من الناس من امتدحوا حلاوة الإذعان والاستسلام . ولا أريد أن أناقش من يجدون السعادة فى خذلان الذهن ، وأحب أن أدعهم فى سعادتهم الهزيلة . ولكن السعادة القوية إنما هى تلك السعادة المصنوعة من نمو قوتنا الجوهرية نموا حرا ، وإن الداء الوحيد الذى لا دواء له هو الذى يوقف وثبة الذهن .

فالشخص الذى يقف على عتبة مشكلة من المشكلات ويقول للمفكر : « لن تدخل ! » يلبسنا مذلة هى أشنع الآلام .

ورد فى كلام ديكارت عبارة تبدو لى دائما مثيرة للفجيعة . فديكارت عندنا هو الصانع العظيم لحركة التحرير التى هى روح المذهب الإنسانى ؛ هو الرجل الذى أعرض عن كل سلطة ، وهو الذى يأبى أن يقبل شيئا قط على أنه حق ما لم يعرف بداهة أنه كذلك . ولكن ياللأسف ! ففى ابريل سنة ١٦٣٤ نجد ديكارت هذا نفسه إذ يتحدث عن بعض النتائج التى استخلصها من اكتشاف « جاليلى » يعدل عن هذه الحرية التى يعرف قدرها ويحسه ، ويكتب إلى الأب مرسن : « ولئن كنت أعتقد أنها مستندة على براهين يقينية جدا وبديهية جدا ، فإنى لا أحب أبدا مع ذلك أن أجاهر بها معارضا سلطة الكنيسة » . وليت شعرى أهناك أم للإنسان أشد قسوة من هذا الذى تتضمنه هذه العبارة حيث نجد التمرد يوجس خيفة حتى من التعبير عن نفسه ؟ إن الرضوخ أمام برهان ما ، ليس رضوخا وإنما هو تقدم إلى الأمام . ولكن اعتقاد المرء بأن برهانا ما هو « يقينى جدا وبديهى جدا » ثم عدوله عن الجهر به لأن سلطة ما تعارضه ، فى ذلك ألم لا يطيقه المرء ولاسيما إذا كان من يحسه يقبين مبلغ ما يتعرض له من مذلة وإهدار للكرامة الإنسانية فيه . وإذا كان العلم يزيل جميع ما يوجد أمام الفكر من عقبات ، وإذا كان يجعل من الحرية قانون نموه

وتقدمه ، فهو قد خلصنا من أسوأ الآلام ، وجلب لنا أرفع بهجة : لأنه لا شيء يستطيع أن يثير حماسة الذهن مثل شعوره بأن أمامه فضاءً لا محدودا ، وأنه لا شيء يستطيع أن يحطم وثبة الفكر .

☆☆☆

لم أنظر فى المسألة حتى الآن إلا من وجهة نظر العالم . ولكن العلم إنما يجلب للإنسانية مع الحرية ذلك الشعورَ بالثقة الذى هو ثمرة له . لقد وضح « لانجفان » هذا الأمر : وأظن أنه كان فى بيانه مصيباً غاية الصواب .

ولنذهب مع « دوركايم » حتى نصل إلى الصور البدائية للحياة الدينية . العالم كالمغمور فى تلك القوة اللاشخصية الهائلة التى لا اسم لها وهى «المانا» (le Mana) . هى قوة يُخشى بطشها ، لأن من يتصل بها دون أن يتخذ الاحتياطات الملائمة يصاب بصدمة تعقب المرض أو الموت. وحينئذ يلتمس الإنسانُ السبيلَ إلى الحصول على شيء من « المانا » لكى يجسر على العمل ، ولكى يطمئن قلبه . ولكنه يعيش فى خوف دائم من أن يلتقى التقاء شاذا ، وبالتالى مشئوما ، مع هذه القوة التى تتجاوزه تجاوزا بعيدا . وإن كانت نافذة فيه . ويبذل الدين جهده للتخفيف من هذا الخوف ، ولكنه بهذا الجهد نفسه يبسط سلطان الخوف ، ويجعل له مسوغا .

أما فى الصور الدينية التى هى أحدث عهدا فقد حلت الآلهة الشخصية محل « المانا » اللاشخصية . وكان هـذا أول محاولة من محاولات التحليل وبالتالى التفسير يجب أن لا نغفل ما لهـا من خطر : لأن ميزة العلم أنه يستطيع أن يحكم بالقسطاس المستقيم على جميع الجهود الإنسانية الكبيرة. ولـكن إذا كان فى هذا النحو من التشبيه[1] (الذى لم يتخلص منه العلم نفسه والذى يتكلف أحيانا عناءً كثيرا للتخلص منـه) إذا كان فيه خير مؤقت ، فهو أبعد الأشياء عن أن يعطى للناس راحة البال والأمان: لأن الآلهة إذا كانوا أحيانا رحماء بالنـاس فهم أحيانا أخرى جبارون ، سرعان ما يستشاط غضبهم . ولمـا كانوا هم حفظة « المانا » فهى ذات بأس شديد . ولابد للمرء لكى « يهدئ » هذه القوى من أن يقدم لها ضحايا بشرية . ثم إنهم إذا كانوا يدخرون أحيانا لمن اصطفوهم ثوابا ونعيما باهرا فهم يتوعدون غيرهم ، وهم الجمع الغفير ، بجميع صنوف العذاب والتنكيل المريع . فالدين ، فى هذه المرة أيضا ، يعمل ما يستطيع ليعطينا الوسائل التى نتحرر بها من هذا الخوف ؛ ولـكنه فى هذه المرة أيضا يبدأ بتمكين أساس الخوف : أراد التأمين فعمد إلى التخويف . وهنـا جاء الروح

---

(١) « التشبيه » Anthropomorphisme هو تصور الله على غرار الإنسان: كأن يقال إنه يرى ويسمع ويغضب ويرضى ، أو أن له يدين ورجلين . و « التشبيه » ضد « التنزيه » الذى هو تصور الله متعاليا عن صفات العباد ــ المعرب .

الأعمى ، فنهض بمهمة التحرير النهائى . لقد هتف « لوكريتيوس » :

Primum Graius homo !..[١] وقال :

« على مرأى من الجميع رقدت الحياة الإنسانية على الأرض رقدة العار ، وقد أبهظتها وطأة دين تبدى من أجواز السماء برأس مخيف ، ينذر بوعيد معلق على رءوس البشر الفانين . حينذاك قام الرجل اليونانى ـ وهو أحد الفانين ـ فكان أول من تجرأ على أن يرفع عينيه متحديا » .

أعيد القول بأن فى هذه الأبيات افتئاتا وتجنيا ، فقد سعى الدين إلى تحرير قبل سعى العلم . وليس كل ما فى الدين وعيدا . غير أن من الحق أن يقال إن الدين قد أقام أركان الخوف الذى حاول أن يخلصنا منه ، وحتم على الناس إقامة الشعائر الدامية . وأنذرهم بالعقاب المروع ، فاستحق أن يوسم بهذا البيت الشعرى القاسى :

Tantum religio potuit suadere malorum !..[٢]

ما الواجب لعمل ما لم يستطع هو أن يعمل ، أى للقضاء على الخوف؟ ينبغى حين نسعى إلى تفسير العالم أن نستعيض عما ينسب إلى الموجودات الإلهية من إرادة متقلبة مخيفة بما للقوانين الطبيعية من فعل مطرد . يقول «لوكريتيوس» : Naturae species ratioque[٣] . وهو يعبر فى هذه الكلمات الثلاث عن روح العلم : ذلك أنه متى تم للإنسان أن لا يرى فى

(١) « الرجل اليونانى أولا !.. » ـ المعرب .

(٢) « كم من بلاء استطاع الدين أن يجر على الناس ... » ! ـ المعرب .

(٣) « طواهر الطبيعة والعقل » ـ المعرب .

الظاهرات آثار إرادة شبيهة بإرادتنا تكون تارة رحيمة وتارة قاسية . ومتى تم له أن لايرى فيها إلا آثار نظام طبيعى ، أى باطن فى الأشياء وفى متناول الأذهان ، فقد اطمأن قلبه وذهب ما كان يساوره من خوف قديم ، واستطاع أن يحتل ما يسميه الشاعر « بالروابى المحصنة بالعلم ومعابد الهدوء والصفاء » .

توهم « لوكريتيوس » أن فلسفة « إبيقور » وحدها خليقة أن تتم على الناس نعمة هذا التحرير . رأى فى الفيزيقا الإبيقورية العلاج لجميع هذه المخاوف ، وأخذه الزهو بهذا الانتصار الذى ظنه حاسما . فحيى فى أستاذه فاتح الكون وقال : « نعم انتصرت به قوة الذهن الحية . قطع أشوطا بعيدة وتجاوز بوثبة الفكر أسوار العالم المشتعلة ! » . نعلم اليوم أن صيحة النصر هذه كانت سابقة لأوانها ، ونعلم أن الجهد العلمى الذى بذله اليونان كان لابد أن يمسكه انتصار أديان النجاة الكبرى ؛ وهى أرفع من سابقاتها قطعا ، ولكنها مثلها عاجزة عن دفع الخوف القديم . ونعلم أن الفيزيقا التى كان يُظن أن واحدا يستطيع أن يقيم بناءها لم يكن بد من أن تكون عملا اجتماعيا يساهم فيه آلاف الباحثين . ونعلم ما نعلمه أيضا هو أنه كلما تقدم ذلك العمل استمر التحرر الذى أراده « لوكريتيوس » وتابع سيره فى صمت ، دون أن يستطيع أحد مقاومته . وكل جهل يزول عبارة عن أمان يقوم . فلا الصواعق ولا اهتزازات الأرض ولا فيضان الأنهار ولا الأوبئة ولا شىء من ذلك يبدو لنا الآن

عقابا يصب على الناس الواجفين ، وإنما ترى هذه الأمور آثاراً لقوانين تستطاع الذهن أن يدركها . وكوننا نفهم هذه القوانين معناه أننا قد تغلبنا عليها قليلا ، ومعناه أننا وضعنا فوق منغصات الأشياء طمأنينة النفس وراحة البال . وعلى هذا النحو يسوقنا العلم شيئا فشيئا إلى حال التحرر العقلى ، ويبث فينا ذلك الشعور بالأمان الذى كانت الحكمة اليونانية ترى فيه الخير الأسمى ، والذى تعقبه الناس بجهودهم القلقة مدى قرون كثيرة .

ولكن من الذى قال إذن إن المثل الأعلى المتضمن فى العلم مثل أعلى متجهم بارد يضىء ولكن لا دفء فيه ؟ هؤلاء العلماء الذين يعكفون فى معاملهم باحثين عما يمكنهم من اغتصاب أسرار الطبيعة ، وهؤلاء المؤرخون وهؤلاء الاجتماعيون الذين ينقطعون لدراسة النصوص محاولين أن يختلسوا منها أسرار الماضى الإنسانى هم من العمال السعداء الذين يساهمون فى عمل « دينى » هو أبلغ ما حاول إنسان . إنهم يساهمون فى أعمق المباهج ، وهى بهجة المعرفة ، ويوقفون غيرهم عليها ؛ يساهمون ويوقفون غيرهم على أرفع صور الاتحاد وهو الاتحاد بالروح ؛ يساهمون ويوقفون غيرهم على أكمل ضروب التحرير وهو التحرير بالذهن . وعملهم كله ، فى وقاره الضرورى ، عمل بهجة ومحبة وسلام . فهل يلزم للإنسان حقا شىء آخر لكى يسمو به ويحمله على جلائل الأعمال ؟ ألا يكفى لمجده أن يكون صانع يوم من صناع هذا العمل الخالد ؟ وألا يكفى لسعادته أن يتصل اتصالا

روحيا بمن يفكرون . وأن يعمل لكى يأتى يوم يصبح فيه الأحياء جميعا من المفكرين ؟ .

إن موضوع دراساتى نفسه يجعلنى أعيش على اتصال دائب بالصور المتغيرة التى تشكل بها المثل الأعلى الإنسانى على مدى القرون . ليس منها صورة إلا ولها جمالها : تحت سقف الهيكل أو تحت رداء الفلسفة ، فى « الحقائق النبيلة » للبوذية أو فى « الموعظة على الجبل »[1] ، فى فكر أفلاطون أو فى فكر « سبينوزا » ، قد وجد سعى الناس للوصول إلى الحكمة تعبيرات مؤثرة رائعة : ولكنى لا أعتقد أن المثل الأعلى قد بلغ أبدا من النقاء والكمال والقدرة على ملأ النفس ورفعها مثل ما بلغ فى الأخلاق الصامتة التى هى روح العلم .

---

(١) « الموعظة على الجبل » خطبة مشهورة ألقاها المسيح على أتباعه (إنجيل متى : الإصحاح الخامس والسادس والسابع) ـ المعرب .

الفصل الحادي عشر

الاعتراض الأكبر

غير أن هاهنا اعتراضا :

قد يقال : سلمنا بأن للعلم مجاله الخاص ، وهو مجال فسيح ، ولكنه ليس مجالا كليا جامعا ، وسلمنا بأن العلم يؤلف بين النفوس ، ولكنه لا يؤلف بينها إلا فى بعض المواطن . وأخطر من هذا أن ما يدعه العلم خارج طاقته هو بالضبط الشيء الذى له أكبر مساس بنا .

متى اقتصر الأمر على المادة والحركة استطاع العالم أن يقدم غذاء طيبا لرغبة الاستطلاع فينا . ولكن حاول أن تتحدث إلى العالم عن الروح أو عن أصل الإنسان ، أو عن غاياته القصوى ، أو عن الموت ، أو عما يحدث أو لا يحدث بعد الموت ، فإنك واجد عنده تصريحا بعجزه وعدم اختصاصه ، أو تهربا من الموضوع . أليس يحل لغيره أن يتحدثوا حين يلوذ هو بالصمت ؟ وإذا كان ما يتحدثون عنه هو الأمر الذى يعنينا قبل

كل شيء ، ألبس يحق لنا أيضا أن نطلب إليهم هم أن يبينوا لنا الغرض والطريق ؟ يستطيع العلم أن يقدم إلينا مثلا أعلى نبيلا مثيرا جذابا . ولكن كيف يستطيع ما دام جزئيا أن ينازل أولئك الذين يجيبون عن جميع المشكلات والذين يرضون جميع الرغبات ؟

يردد هذا الاعتراض كل يوم . ويرد أحيانا على ألسنة رجال لا يقفون من العلم موقف خصومة أو استرابة ، يبجلونه ويولونه ثقتهم ، وقد لا يكون لهم من مطلب إلا أن يتابعوه إلى النهاية ، ولكنه يقف فى منتصف الطريق ، فيفارقونه على مضض ، لأنهم يريدون أن يسيروا أبعد مما سار ، ولأنهم يحسون الحاجة إلى حقيقة أتم وإلى حكمة أوفى .

فما الجواب على الاعتراض ؟

الجواب أن الحق معهم من غير شك فى قولهم إن العلم لا يجيب عن كل شيء ، وهو فى هذا مخالف للأديان والفلسفات التى تتسابق فى تقديم شتى الحلول لمشكلات لا تحصى . لننظر على سبيل التمثيل فى دين كبير من أديان النجاة كدين « مثرا » mithracisme الذى كاد أن يغزو العالم فيما قال « رنان » . نعم إن معتنقه يجد فيه ما يرضى كل ما يتطلع إلى معرفته ، يجد فيه أولا تاريخ ربه :

ولد « مثرا » المخلص مولدا معجزا ؛ ثم عبده الرعاة ؛ واقتدى الناس بعد أن دنستهم الخطيئة الأولى . وبعد أن قضى حياته يقاتل أمير الشر

جمع تلاميذه حول مائدة مقدسة ، ثم بما له من قوة خاصة صعد إلى السماء. فإن أردت أن تملك الحقيقة وأن تضمن نجاتك فى آن واحد فآمن به ، وشارك فى قرابينه ، واشرب الماء الذى هو دمه ، وكل الخبز الذى هو جسده . وإن شئت أن تعرف نظام الكون ، فانضم إلى زمرة مريديه (mystes) تنكشف لك أسرار الخلق ، أو الدوائر التى يكون فيها العالم. وإن شئت أن تعرف مصير الانسان بعد الموت فألق سمعك تعلم أن روحك سوف تخلص من الفناء فى نهاية حياتك على الأرض ، وسوف تقف بين يدى « مثرا » ليحكم فى أمرها بما آمنتْ وبما عملتْ : فإن كنت مدنسا آثما خلدت فى نار جهنم ، وعذبتك الشياطين ، وإن كنت مطهرا صالحا نلت نصيبك من النعيم المقيم وبعثتْ الحياةُ فى جسدك ، وكان مثواك فى السماء بجوار « مخلصك » .

لابد من الإقرار بأن مذهب «مثرا» الذى يقدم هذه اليقينيات كلها يأتى بمذهب أتم مما يقدمه العلم اليوم إلينا ، ويجيب أجوبة مستفيضة على جميع ما يعنينا أن نعرف . ولكن من منا يؤمن بمثرا ؟

ومَن مِن الناس يؤمن بايزيس و«أوزيريس» و«ديمتر» Déméter و « برسيفون » و « قيبيل » و « أتيس » و « زيوس » و « أپولون » و « هرقليس » Héraklés ؟ زعمتْ جميع هذه المعتقدات الكبيرة أنها خالدة حاسمة . وجميعها دالت دولها وتضاءلت أمام مجهود النقد ؛ وجميعها

كان ينبغى أن تنجينا من الموت . وجميعها ماتت من نفسها .

والملاحظ أنه ليس منها معتقد إلا وفيه إغراء : يلذ للمرء أن يعتقد أن « مثرا » أو « أنيس » قد قالا حقا . وأنه يكفينا أن نؤمن بالفضيلة وأن نمارسها لكى يكون لنا الحق فى أن نؤمل لنفوسنا بقاء ونعيما مقيما . ولو خلينا جهنم جانبا (من منا يقبل سعادة لا تكون سعادة الجميع ؟) فما يطلب المرء إلا أن يقبل أديان النجاة التى تضمن سعادة لا نهاية لها . ومع ذلك فنحن لا نؤمن بها . و « الأدلة » التى ساقتها « الأرفية »(١) و« المتروافية » و« المثرائية » لا نعبأ بها اليوم إلا كموضوع من موضوعات الدراسة . ولا يخطر ببالنا أن نناقش ما لهـا من قيمة . لم يكن لها سند من العقل ولا من التجربة فنامت مع من آمنوا بها . وأصبحنا وإذا تلك اليقينيات التى آمن بها ملايين الناس ، أفكار ميتة مرصوصة على طول الطريق البشرية .

فنحن الذين نشاهد تغير هذه الحقائق المتعاقبة . نحن الذين نراها فى التاريخ تولد وتنتصر وتموت . أليس لنـا الحق فى أن نقول لأنفسنا

---

(١) « الأرفية » Orphisme مذهب دينى نشأ ببلاد اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد ؛ وينتسب إلى « أرفيوس » الشاعر القديم . وما نعرفه عن « الأرفية » إنما أتى إلينا من الإسكندرانيين ، الذين خلطوا المذهب بأفكار شتى ، خلعوا عليها ثوبا مقدساً ، وجعلوها على لسان الحكماء الأوائل ـ المعرب .

بأن من أيسر الأمور أن تحل جميع المشكلات إذا لم يلتزم الإنسان فى حلها تلك المناهج الشديدة التى يجعلها العالم قانونه الذى لا يحيد عنه ؟ أليس لنا الحق فى أن نرى أنه ليس ليقين قيمة كبيرة إذا لم يستطع أن يثبت على الزمان والمكان ، وإذا بلغ من الضآلة أن يختفى بتمامه دون أن يبقى منه شىء ؟ أيجب علينا أن نتقص من مذهب لأنه لا يجيب على الفور عن جميع ما يعنينا أن نعرف ، فى حين أننا نرى الجم الغفير من الأجوبة المطلقة المتصلفة يسقط الواحد منها بعد الآخر فى مهاوى الإغفال والنسيان ؟

قد يعترض علينا بأن العلم هو أيضا يشاهد انقراض كثير من مذاهبه ونظرياته . إذا صح أن الفروض تذهب وأن أكبر الفروض قد يجرى عليها ما يجرى على الجمهرة الشائعة ، وأن العلم ، كما قدمنا ، لا يعرف إقفال باب المناقشة ، إذا صح هذا فيبقى أولا أن بعض الوقائع الممحصة تمحيصا جيدا تبقى وتكون فى العلم أشبه بما يسمى فى الاصطلاح الحديث « بالرصيد الذهب » (encaisse - or) ، ويبقى أيضا أن النظرية الجديدة تلتئم مع سابقتها ، وتشرع فى الاعتماد عليها قبل أن تتجاوزها . وإذن فحتى خطأ اليوم يقوم بدور نافع وهو أن يمهد لحقيقة الغد ، وهذه بدورها تمهد لحقيقة أعلى ، وهكذا إلى غير نهاية .

أما الحقائق « المطلقة » فمصيرها على العكس هو الانقراض التام . إن

وحى « مِثرا » لا يتقـــدم إلى أنصار الدين فى صورة تعبير مؤقت عن معارف من شأنها أن تنمو وأن تتحول ،وإنما يتقدم كتلةً واحدة ، فإما أن تقبـل أو تترك . وحينئذ لا يقصر الأمر على تركها ، بل إن من يتصدون للقيام مقامها يكونون أبعـد الناس عن الاستناد عليها ، بل يبدأون بصب اللعنة عليها ، ويعلنون أنها من عمل الشيطان : يحطمونها بالقـوة ويجهـزون عليها بالنسيـان ، ثم يزعمـون هم أيضا أنهم خالدون ! . . .

قد يقال إن تقديم أجوبة مصيرها النسيان هو على الرغم من ذلك كله أفضل من عدم تقديم أجوبة مطلقا ؛ ولأنْ نؤمن بمثرا أو بأى واحـد غيره ، فنجد فى ذلك الإيمان رضى وسلوى ، أفضل من أن نثق بعـلم لا يريد أو لا يستطيـع أن يقول لنا شيئا عن الروح ولا عن الموت ولا عن مصيرنا بعد الموت .

أعرف أن الكثيرين يقولون هـذا ، وأعرف أن بينهم كثيرين من أصحاب النفوس النبيـلة جداً . زد على ذلك أن عالم الاجتماع لا يدهشه أن يرى مذاهب الاعتقاد والأمل التى سيطرت على العالم قرونا عديدة لايزال لها اليوم بعض السلطان على ملايين القلوب البريئة .ومن أجل ذلك كان كل ما شابه التعصب القديم وكل ما كان من قبيـل الكراهية أو الازدراء للعقائد الإنسانية شيئا بعيدا عن الروح العلمية .

ولكنى وإن كنت أبذل غاية جهدى لأتحاشى إيلام أى شخص أو خدش إحساسه ، أريد أن أبين لِمَ كان الاعتراض الأخير الذى يوجه إلينا ، والذى يُظن أنه حاسم اعتراضاً لا ينال منا وطرا .

يسأل أولا : أحق أن العلم يسكت عن كل ما يمس النفس والموت وبقاء الروح بعد هلاك البدن ، وبالأجمال عن جميع الأديان ؟

كلا بل تتعامل العلم فى هذه المجالات فى صورة تاريخ الأديان أو علم الاجتماع الدينى . وأجاب عالم الاجتماع عن السؤال القديم : « هل الآلهة موجودة ؟ » بقوله : «إنها موجودة قطعا باعتبارها وقائع اجتماعية كبيرة» وهو قد أكبّ على هذه الوقائع فدرسها كوقائع لا تحدوه إلا الرغبة فى الفهم؛ فاستعيض عن التاريخ الجدلى الذى شاع عند فلاسفة القرن الثامن عشر ، وعن التاريخ الشعرى الذى برّز فيه « رنان » [١] ، بتاريخ قام على مهل ، مشبعا بروح ومناهج علمية محضة ، فلم يقنع بأن أخضع لبحوثه المسيحية واليهودية بالتناوب ، بل أخضع لها أيضا المعتقدات والشعائر عند جميع البلاد وفى جميع الأزمان حتى الصور الأولى للحياة الدينية .

---

(١) « رنان » Renan من أشهر العلماء والكتاب الفرنسيين فى أواخر القرن التاسع عشر . نشر بحوثاً مرموقة عن « أصول اللغات » وعن « تاريخ أصول المسيحية » وله مؤلفات كثيرة مشهورة منها « محاورات وخطب فلسفية » و « مستقبل العلم » . . . طبع مذهبه الفلسفى بطابع وحدة الوجود والمثالية ، ووسطه فى صورة شعرية بالغة الروعة والجمال ـ المعرب .

فإذا المعتقدات المتصلة بالنفس و بالألوهية و بالشعائر و ببقاء الروح وقد أصبحت اليوم ظاهرات يدرسها العالم بتمام الهدوء والصفاء كما يدرس ، فى مجالات أخرى الظاهرات الطبيعية أو البيولوجية . و إذا صح لبعض الناس أن ينازعوا اليوم فى النتائج الأولى لهذه الدراسة فإن أحدا لم يعد يجسر على المنازعة فى مبادئها ولا فى مناهجها .

فلا يقولن أحد إن العلم يعمد إلى نوع من التشيّع ، فيُخرج من مجاله الخاص كل ماله مساس بالحياة الدينية : بل إنه ليرحب بأن يجعلها موضوع بحوثه ؛ وهو يرى فى الأفكار المتصلة بالروح و بالمعجزات و ببقاء الروح «آراء جمعية» représentations collectives يسعى إلى إدراك طبيعتها وتطورها : ولا يخطر بباله أبدا أن يلتمس فيها مادة للسخرية أو للمناظرة والجدال ، و إنما يلتمس فيها معلومات عن تاريخ الفكر .

حق إن هناك فرقا بين أن ندرس العقائد المتصلة بالروح و ببقائها و بين أن نقطع بأن هناك روحا أو بقاء . وأقر عن طيب خاطر بأن العلم يأبى الإجابة عن أكثر المشكلات التى بتّت فيها العقائد أو المذاهب . صحيح أنه قد يقع للعلم أن يصدر حكما ؛ فواضح أنه مثلا ينكر « المعجزات » : أولا لأن الوقائع المعروضة تحت هذا الاسم ليست محققة وفقا للقواعد العادية للمنهج الوضعى ؛ وثانيا لأنها لو كانت كذلك لكان كل الجهد العلمى عبارة عن إخضاعها لفكرة القانون الطبيعى . ولكن

العلم يسكت عن مسائل أخرى : فلو سألتـه رأيه فى الروح أو فى البقاء بعد الموت لما أجابك بشىء .

أقول إنه لن يجيب : لأنه لا بد لى هنا أن أدفع الالتباس . زعم البعض حينا أن « المادية » إما أن تكون مسلمة من مسلمات البحث العلمى أو نتيجة من نتائجه . ولـكن الواقع أن المادية لا تعدو أن تـكون مذهبا ميتافيزيقيا . وليس من شأن العلم من حيث هو علم أن يحارب بها أو أن يناصرها . وحسبه من عمـل أن يتبين طبيعة المادة وعلاقاتها بالظاهرات البسيكولوجية دون أن يتشيع لمذهب قد يؤثر فى بحوثه المستقبـلة . وإذن فقد صح من جميع الوجوه أن العلم يقف اليوم بإزاء بعض ما أثارته أفـكار الناس من مشـكلات ، موقفَ الصمت والتنحى عن التصريح بشىء مالم يكن قد تحقق من معاينته كما ينبغى .

ولـكن أيلزم أن يكون صمتُ اليوم صمتا أبديا ؟ أيلزم من عـدم الاهتداء ، فى بعض المواضع ، إلى حل من الحلول ، أو من عدم الاهتداء حتى إلى الجانب الذى يمكن أن يُلتمس فيـه ذلك الحـل ، أن لا نبحث عنه وأننا لن نهتدى إليه قط ؟

* * *

نعم هنالك فـكرة عن العلم هزيلة مستحيية تقضى علينا بهذا العجز : وهى الفكرة التى ترسم حدوداً لمجال بحوثه وتقول له : « هنا مجالك »

وتمنعه مقدما من أن يخرج منه أبدا . ولكن هناك فكرة أرفع وأشد اعتزازاً ، وهى تأبى أن نسلم بأن مشكلة كائنة ما كانت يمكن أن تفلت مبدئيا مما للعقل والتجربة من سلطان متزايد .

فأى هاتين الفكرتين كانت أخصب ؟ أقرأ فى بعض مؤلفات « أوجست كمت » أن العلم يمكن أن يعين أشكال الكواكب وأبعادها وحجومها وحركاتها ، ولكنه لن يستطيع « أبدا أن يدرس بأية وسيلة تركيبها الكيميائى » . يقول : « أبدا » ، ولكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمة حتى رأينا علما جديدا يكذب كلامه تكذيبا بينا . وأقرأ فى الكتاب نفسه الذى أشاد فيه مسيو « ترمييه » بهجة المعرفة قوله : « أكبر الظن أننا لن نعرف أبدا كيف تكونت الأرض وهل هى سديم من السدم الصغيرة المركزة فى كتلة من الأجسام الصغيرة الصلبة معلقة بعضها ببعض . وأكبر الظن أننا لن نعرف أبدا ماهى الحالة الطبيعية لنواتها الداخلية . . » ويسطر صفحة بتمامها يحصى فيها هذه المشكلات التى لا بد أن تتحطم عليها جهود العلم مهما بلغت . وتعود كلمة « أبدا » ويسمع لها رنين ، وكأنها حكم لا نقض له ولا إبرام ! ولكن فى نفس الوقت الذى يضع فيه مسيو « ترمييه » هذه الحدود كلها ، برغت بواكير طرائق لحل المسائل التى ظن بحسن نية أنه لا سبيل إلى حلها .

وإذن فعلام يستند الذين يصرحون بأن المشكلات المتصلة بالروح

والموت والبقاء ستظل دائما عند العلم ألغازا لا سبيل إلى حلها ؟ ومن ذا الذى يقول لنا إن العلم سوف لا يتناول جميع هذه المناطق التى لم تزل مظلمة ، فينشر عليها النور ، إما بالإجابة عن الأسئلة الموضوعة ، وإما ببيانه أن من الواجب وضعها على نحو آخر مخالف للنحو الذى وضعت عليه من قبل .

قد يقال إن الواقع أننا لا نرى بعدُ أى جهد فى هذا السبيل . وإنا نسلم عن طيب خاطر بأن المحاولات التى بذلت تحت اسم « علم الأرواح » Spiritisme فيها شىء يدعو إلى التشجيع . وأكبر الظن أن هذا الخطأ المشئوم كان مما ساعد على نشر الفكرة بأن العلم ينهج سبيل الحكمة بوقوفه من نفسه على عتبة بعض المجالات . ولكن من حيث إن « علم الأرواح » لا يعدو أن يكون « كاريكاتورا » للعلم فقد لا يخلو من جرأة أن نأخذ من فشل الأول حجة على فشل الثانى .

والواقع أن العلم إذا لم يكن قد صاغ أى جواب عن جميع هذه المشكلات التى تبتّ فيها المذاهب والعقائد ، فيبدو أنه فى طريقه إلى تغيير مفروضاتها[1] تغييرا قويا . إن الذى كان يسود جميع الآراء القديمة المتصلة بمدة الوجود الإنسانى إنما هى نفس فكرة زمان مطلق : ولكن ما مصير هذه الفكرة الميتافيزيقية غداة التقدم الذى غيّر تغييرا عميقا نظرتنا الوضعية إلى الزمان ؟ والذى كان يسود جميع المناقشات المتصلة

(١) données – مفروضات المعرفة هى المواد التى يشتغل الذهن عليها والتى لا يستطيع أن يخترعها ولا أن يغيرها – المعرب .

بالعلاقات بين المادة والفكر إنما هى طريقة قديمة مجملة فى تصور المادة ؛ ولكن منذ ربع قرن تلقى هذا التصور من الفيزيقا ضربات شديدة بلغ من شدتها أن جعلته اليوم تصورا يمت إلى الماضى ولا يعبر عن الحاضر . فإذا كان سابقا لأوانه أن نقول إننا نلمح من الآن حلا ، فليس من الجرأة أن نقرر بأن تبدل أحد العناصر الأساسية للمشكلة إنما هو تبدل يتناول المشكلة القديمة بأسرها . وأخيرا إن نفس النظرية التى بسطها « لانجڤان » فى العالم الماضى عن معنى « الموضوع الفردى » objet individualiste ، هذا المعنى الذى يبدو لنا غاية فى البساطة ، والذى نرى العلم بسبيل تغييره تغييرا عميقا جدا ، قد غيرت نفس مفروضات عدد كبير من المسائل التى حلتها قبل الأوان فلسفة لم تكن تنظر إلى الوجود إلا من زاوية الفردية .

***

أعلم حق العلم أن تغيير مفروضات مشكلة من المشكلات ليس معناه حلها ؛ وسأحتاط لكى لا أتخيل حلولاً قد لا تستند على شىء فى الآونة الحاضرة . ولكن تقدم الفيزيقا وما استتبعه من انقلاب فى آراء كانت صميم الحلول الميتافيزيقية العتيقة ، أليس فيه ما يكفى لإثبات أن العلم ليس مقضيا عليه بدياً بالعجز أمام مشكلة ما ؟ كلا لا ينبغى على العلم أن يعدل عن « التماس أصل الكون ومصيره » كما خيل إلى الوضعيين . ولا ينبغى

عليه أن يعدل عن إدراك العلاقات التي تربط بين المادة والفكر . ولا ينبغي عليه أن يعدل عن معرفة النوت ماهو على التحقيق وما مدى مساسه بالفكر . ولكن يستطيع العلم ويجب عليه أن يقول : « لا نعرف فلنبحث ! » حيث يقول غيره منذ قرون « لا نعرف ، فلنؤمن » .

أفي التكلم بمثل هذا الكلام ، أي الاعتراف بالجهل مع التصريح بأنه مؤقت ، والعمل على القضاء عليه ، ما يفيد الاقتصار على حكمة جزئية هزيلة ؟ كلا بل على العكس ، إنه يفيد التصريح بأن الحكمة الصحيحة هي تلك التي تريد دائما أن تزيد وأن تتفتح لها الآفاق . وليس في ذلك الكلام ما يحد من المثل الأعلى الإنساني ، بل فيه ما يفتح الأبواب كلها لجميع الآمال .

ولكن سيقول المتعجلون وقليلو البصر إن كل هذه الكشوف الكبيرة ستأتي بعدنا وقد تكبدنا عناءها دون أن نقتطف من ثمراتها شيئا .

ويشبه هذا الكلام جملة كثر ذكرها : « سيجدون السبيل إلى أن لا يموتوا ، وسيكون ذلك بعد أن أكون أنا قد متّ » ! ولكن فيم الاعتراض ؟ إنه النصيب المقسوم والحظ المقدور على جميع من يطلبون الحقيقة أن يعملوا لمن يجيء بعدهم أكثر مما يعملون لأنفسهم . أينبغي أن نرثي لحظهم ؟ أليس لتضامن الأجيال . هذا التضامن الذي يجعل منا صناعا غير مغرضين نعمل لسعادة من يجيئون بعدنا . أروع وأوقع من

الأنانية التى تريد أن تحبس أحلامنا بين الحدود الضيقة التى تحد المصير الفردى ؟ ومن يدرى ؟ فقد يستطيع العلم نفسه أن يرينا يوما أن مساهمتنا مقدما فى مصير من يأتون بعدنا ، وأن بثنا روحنا فى روحهم وحياتنا فى حياتهم ، ربما كان آخر الأمر وسيلة من الوسائل التى نذود بها الموت عنا .

openkandil.com

الفصل الثانى عشر

الملحمة الإنسانية

قلت فى بدء هذا البحث إن مثلا أعلى خليقا بهذا الاسم يجب أن يكون قادرا على أن يثير الحماسة ، وأن يحرك الهمم ، وأن يأسر الألباب . وأود أن أسأل فى الختام أى مثل أعلى يستطيع بهذا الصدد أن يكافىء المثل الأعلى الذى يتضمن الإبداع العلمى ، وأى مجال أبعد منه آفاقا يمكن أن ينفتح للناس المتعطشين إلى التضحية و إلى الشعر والأمل .

وليس معنى هذا أنى غافل عما انطوت عليه النظريات السابقة من جاذبية وسحر : خلق الله الإنسان ، وجعله على صورته ، وفضله على العالمين . وكانت الخطيئة وأصبح الإنسان بها من الخاسرين . ولكن ما تزال منزلته فى مركز العالم ، وكأنه نصب ملكا على الخلق أجمعين . وجاء « مخلص » فكفر عن سيئات الإنسان ، وجعل مصيره الأعلى أن يذهب ليلقى ربه الذى علمه الحقيقة الأزلية وكاشفه بالعدل الخالد .

ولا محل للعجب من أن أمثال هذه الأفكار ، مهما يخالطها من شوائب ،

نروق الناس وتجد عندهم آذانا صاغية . . لسنا نحن الذين نريد أن نحط من قدر أى جهد إنسانى عظيم يبذل من أجل الحق ومن أجل العدل . ولسنا نحن الذين ننازع فى أن أديان النجاة جاءت آية شاهدة على التقدم البديع الذى بلغته وفاقت به الأديان الزراعية agraires القديمة التى ورثتها . ومادام العلم قد شرع لنفسه قانونا وهو أن يفهم كل شىء ، فليس لنا من مطلب إلا أن نحكم بالعدل على العقائد التى لا ندين بها .

ولكن ليسمح لنا على الأقل أن نعارض هذه النظرات القديمة بالنظرة التى يوحى بها إلينا العلم منذ الآن .

لم يعد الإنسان مستويا على العرش وسط العالم ، ولم يعد مفضلا على العالمين . وليست الأرض فى مركز المنظومة الشمسية ولا هذه المنظومة نفسها فى مركز الكون . وما المجرة إلا واحدة من بين جحافل عديدة من الكواكب انتظمت فى الفضاء على ملايين السنين الضوئية . وما الشمس التى قدسها كثير من الشعوب إلا وحدة تافهة ، وما الأرض إلا جزىء ضئيل وسط هذه الجحافل التى تشتمل على مليارات الكواكب . ومع ذلك ففوق هذا الجزىء ، ومنذ مليارين من السنين على وجه الاحتمال ، ظهرت الحياة ، وخرجت صور ومثل أصبح أحدها مثال الإنسان .

خيل إلى الناس أن أجدادنا فى العهود السحيقة من أواخر الزمن

الثالث[١] أو أوائل الزمن الرابع[٢] كانوا ملوك العالم . ولكن يالالأسف إنهم لم يستطيعوا إلا بجهد بطيء شاق أن يرتفعوا شيئا فشيئا عن مستوى سائر الأناسى القريبة من القردة . وما الأرض التى يعيشون على ظهرها ؟ إنهم لا يعلمون . ومن هم أنفسهم ؟ إنهم يجهلون . صرفتهم عن ذلك مشاغل العيش ، واتقاء البرد والجوع ، وصد عدوان الحيوانات الأخرى. جهلوا القوانين ، بل جهلوا فكرة القانون نفسها ، وساور خيالهم القلقُ والفزع ، فتوهموا الدنيا مملوءة بالقوى المجهولة والإرادات المتعسفة المستبدة. وأخذ الخوف ، وهو ابن الجهل ، يستحوذ على نشاطهم القلق المضطرب . ومع ذلك فقد بزغت من لب هذه الحقيقة المتواضعة الملحمةُ الإنسانية الكبرى : شرع الإنسان يتحرر بالفكر .

الفكر هو الذى أوحى بصنع تلك الأداة الأولى التى نستطيع اليوم بفضلها أن ننشىء من جديد مصير أجدادنا . وفى حين بقيت أداة « الشمبزى » منشلة ، تقدمت أداة الإنسان فدقت وتنوعت ، لأن المشاهدة والتفكير قد هدَيا أوائل المخترعين . وقد رأينا أن هذه الروح

---

(١) l'âge tertiaire : ابتداء ظهور أنواع الحياة الحديثة من نبات وحيوان وبدء ظهور القردة والثدييات الراقية .

(٢) l'âge quaternaire وهو العصر الجيولوجى الحاضر : ظهور الإنسان مع حضاراته القديمة .

نفسها ، روح المشاهدة والتفكير ، قد انبثت حينا فى السحر نفسه وفى الأديان . وقد يجد الباحث فى ثنايا بعض عقائد مهجورة الآن من جميع الناس ، شيئا يؤذن بالعلم ويمهد له . وأخيرا خرجت فكرة القانون الطبيعى من هذه الجهود البطيئة . فوجد السلاح القاضى على الخوف القديم ، والمعين على فتح العالم .

فتح شديد العناء ! فبعد الومضة الأولى التى أضاءت شطراً من عالم البحر المتوسط ، تقهقر العلم أمام الموجة الصوفية التى جرفت الإمبراطورية الرومانية ، فأضحى خيطا رفيعا ضائعا فى الغابة الكلامية المدرسية . ولكن جاء عصر النهضة بفتنته ، فعاد العلم إلى الظهور أكثر تألقا وأشد إقداماً مما كان من قبل . وإذا بنا فى عهد « كپرنك »[1] و « جاليلى » و « كپلر » نشهد تلك الإنسانية نفسها التى كانت فيما مضى مكبة على الأرض ، باحثة فى قلق عن سبل العيش ، وقد قذفت بنفسها ، تبتغى أن تفتح السماء . وانهزمت الكواكب ، وسارت تحت لواء القانون

---

(١) « كپرنك » Copernic (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) عالم فلكى بولندى ؛ يرجع إليه الفضل فى انتصار النظرية الفلكية الحديثة التى تجعل الراصد هو الدائر بسبب دوران الأرض ، على نظرية « بطليموس » القائلة بسكون الأرض ودوران الكرة السماوية ـ المعرب .

الكبير الذى صاغه « نيوتن »[١]

أهذا كل شىء ؟ كلا ! بل مضى العلم قدما دون أن يقف عند هذه الانتصارات الفتانة . وبدا عالم « جاليلى » عالما قد تجاوز حده ، ففرقع تحت ضغط الكشوف المتراكمة . أصبحت المجرة وحدة معينة ، وانكشفت للإنسان مجرات أخرى منفصلة عنها بفضاء يقطعه الضوء فى ملايين السنين ، وتجاسر الإنسان على أن يقيس تلك المجرات . ثم جاء حين من الدهر لاح فيه أن الذهن الإنسانى سيضل عن طريقه فى هذا الكون اللامتناهى . ولكن فى ذلك الحين نفسه بيّن « أينشتين » أن كل تلك المجموعة الهائلة من السدُم[٢] قد احتواها فضاء محدود : سيطر الفكر على ما كان يبدو متحديا كل فكر ، واستطاع بالمشاهدة وبالحساب أن يرتب أمور منزله .

وما هذا إلا تقدم علم واحد من بين العلوم . ولكن الذهن ألقى بنفسه فى جميع الاتجاهات ساعيا وراء الحق ، ولم يخش حين شارف اللامتناهى فى العظم ، أن يشارف اللامتناهى فى الصغر ، متناولا الكوكب والذرة

---

(١) « نيوتن » Newton (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) رياضى وطبيعى وفيلسوف إنجليزى ؛ أحد أساتذة العلم الحديث ؛ وصاحب نظرية الجذب العام ؛ وله نظريات فى علم البصريات ؛ اخترع فى وقت واحد مع ليبنتز حساب الأجزاء اللامتناهية فى الصغر ؛ وعاون على نشر الفلسفة الروحية ـ المعرب .

(٢) nébuleuses

فى آن واحد . ولكنه حين تغلغل فى العالم الذرى لم يجد فيه نسخة مصغرة من العالم السماوى . كما ظن « پسكال » ، بل اكتشف فيه طرائف لم تكن فى الحسبان[١] ، ووفرة من المتنوعات أورثته أول الأمر حيرة و بلبالا. ومن هذا السلوك الجرىء الذى حمل الفكر بالتناوب من المجرة إلى الإلكترون électron انبثقت نظرات جديدة عن المكان والزمان والضوء والمادة والوجود نفسه .

وفى الحين نفسه الذى أثمرت فيه الفيزيقا ثراء لم يكن للناس عهد به، أغارت البيولوجيا على المادة الحية ، وتلمس علم الوقائع الإنسانية سبيله ، وانبرت جحافل من المؤرخين لدراسة الماضى ، فكدسوا وقائع ، و بددوا أكاذيب وضلالات وأساطير ، وسعوا إلى أن يتبينوا شيئا من منعطفات التطورات الإنسانية .

لنوازن بين إنسان اليوم الذى عاصر هذا التقدم المعجز الخارق بالإنسان الذى عاش أوائل « الزمن الرابع » و بين ذلك المخلوق الجاهل المذعور الذى كانت أقصى مطامعه أن يقدّ مطرقة خشنة من الصوان .

ولنسائل أنفسنا أيوجد شىء أبدع وأعمق شعرا وأكثر هزا للنفس من هذا التحول الفذ المذهل ، تحول الإنسان من مخلوق يرتجف إلى مخلوق يعرف ؟

---

(١) nouveautés imprévues

إنى شديد الإعجاب بما فى « الإلياذة »[١] من تصادم الناس والآلهة وبما فى « الإنيدة »[٢] من شدة مراس الإنسان الذى يكافح وينشئ ، وبما فى « ترِسْتان »[٣] من قوة الحب التى لا تغلب . وإعجابى لأن الفن كالعلم تمجيد للذهن وإبداع مبرأ من الغرض ، وقوة مشاركة روحية فى المثل الأعلى . ولكنى أقول إنه ما من ملحمة مكتوبة ، وما من قصيدة تشيد بالأفعال والانفعالات تعدل فى ثرائها وعمقها هذه الملحمة الرائعة التى حولت الإنسان من مخلوق ضعيف مذعور سريع التصديق إلى فاتح من الفاتحين المسالمين يُغِير على أسرار الكون .

☆☆☆

نعم قد اختلطت باللوحة بعض الظلال : بسط الذهن فتوحه وغزواته ولكن تخلّفت الأخلاق عنه ؛ وزاد حظ الناس من المعرفة ، ولكنهم لم يصبحوا أقل مما كانوا بغياً وعدواناً : تقسيم الأرض بين الشعوب وتوزيع الخيرات على الأفراد ، بل تقسيم الثقافة العقلية ، ما زال هذا كله ترفرف عليه راية العنف والجور . . ومن أشنع المفارقات أن عصر « هنرى

---

(١) « الإلياذة » Iliade ملحمة رائعة من الشعر اليونانى القديم ، قص فيها « هوميروس » قصة طروادة (فى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد)

(٢) « الإنيدة » Enéide قصيدة من روائع الشعر اللاتينى ، قص فيها « فرجيل » أسطورة « إينوس » (القرن الأول قبل الميلاد)

(٣) « ترستان » Tristan أسطورة من أساطير القرون الوسطى الأوروبية .

بوانكاريه»[١] و«أينشتين» و «بوهر» Bohr و«پرّان»[٢] و«بلانك» Blanck و «لانجڤان» و «دوبروى»[٣] هو العصر الذى يرى بلادنا العربية وقد دنستها أول الأمر حرب هى أشد الحروب شناعة . ثم دنستها سيطرة هى أشد السيطرات خسة ، وهى سيطرة المال . ولكن الذى أود أن أكون قد بينته هو أن العلم يتضمن مثلا أعلى لو تم له النصر مع العلم لدفع كل هذا البلاء الأخلاقى ، ولاستطاع أن يرد المال إلى مكانه وأن يضع الذهن فى منزلته ، وأن يطالب بالتحرر الاقتصادى ، لا كغاية فى ذاته ، بل كشرط للتحرر العقلى ، وأن يؤلف بين الناس فى الحرية وبالعقل ، بحيث ينال الجميع حظوظهم من معارك الفكر ومباهجه.

أهو مثل أعلى بعيد ؟ قد يشاء المعارضون أن يعترفوا بأن العلم الحديث قد تقدم تقدماً ما كان يبدو قبل ثلاثة قرون أكثر إمكاناً من التقدم

---

(١) « هنرى بوانكاريه » Henri Poincaré (١٨٥٤ — ١٩١٢) فيلسوف فرنسى معاصر ومن أكبر علماء الرياضة . تركت مؤلفاته الفلسفية عن « قيمة العلم » و « العلم والافتراض » وعن مناهج العلوم الرياضية والفيزيقية ، أثراً عميقاً فى مفكرى عصرنا هذا ــ المعرب .

(٢) « برّان » Perrin (١٨٧٠ ــ ١٩٤٢) عالم من علماء الطبيعة الفرنسيين؛ كان أستاذاً للكيمياء الفيزيقية بالسربون حتى قيام الحرب العالمية الأخيرة . صاحب بحوث مهمة عن الكهرباء وعن النظرية الإلكترونية . ــ المعرب .

(٣) « دوبروى » De Broglie عالم من علماء الطبيعة الفرنسيين المعاصرين ؛ عضو فى « الأكاديمية الفرنسية » ، حاصل على جائزة نوبل ؛ وأستاذ بكلية العلوم بباريس ، صاحب مباحث قيمة فى المادة والضوء ــ المعرب .

الذى نتحدث عنه اليوم . وقد يسلم المخالفون أيضاً بأنه إذا بدا هدف من الأهداف بعيداً فخير سبيل للاقتراب منه هو أن نعمل لا أن نتململ .

ولست أبغى أن أعتذر عن العلم إذ فتح لنا آفاقاً واسعة بل ينبغى فيما أعتقد أن نشكر له يده ، لأنه لم يرسم حداً لتشوفنا إلى الحق .

أينبغى علينا بأن نسلم بأنه ما دامت كتلة الشمس صائرة إلى الفناء بنفس إشعاعها ، فلم يبق أمام الإنسانيـة لتموها إلا بضع مليارات من السنين ؟ إن هذه الفترة الطويلة من الزمان تمد لنا فى أسباب الرجاء وتهىء لنا مجالا طيباً للعمل . ولـكن إذا استمر تقـدم المعرفة ولو على النحو البطىء المزعزع الذى كشف عنه تاريخ الماضى البعيد ، ومن باب أوْلى على النحو السريع الذى جرت عليه منذ عصر النهضة ، فما أبعد المسافة التى ستكون بين إنسانية اليوم والإنسانية التى ستظهر بعـد عشرة أو عشرين أو مائة مليون من السنين ! وما أعجب ما سيقع من كشوف ومخترعات ، وما أغرب ما سيتم من تقدم فى الفن وفى طريقـة تصور المثل الأعلى ومصير الإنسانية !

ومن يدرى ؟ فلعل أولئك الناس – و بينهم و بيننا من البعد ما يزيد ألف مرة على ما بيننا و بين أهل العصر الحجرى القديم – لعلهم يجدون من أيسر الأمور أن يتصلوا بعوالم قريبـة أو بعيدة ، ولعلهم لا يتأثرون بذلك الحادث الضئيل الذى سيـكون عبارة عن انقراض الشمس ،

فيؤكدوا العمل اللامحدود ، عمل الفكر[١].

☆ ☆ ☆

إنى أقف هنا عن الكلام : فربما يعاب علينا الاسترسال مع الأحلام الضافية و إطلاق العنان للمطامع المتطرفة ، بعد أن عيب علينا تمسكنا بحكمة جزئية متواضعة باردة ! ولكن بإزاء هذه الآفاق الواسعة التى فتحتها أمام أعيننا بواكير النجاح الذى أصابته بحوثنا الأولى ، نرجو ألا نرى معترضا يقول لنا إن العلم والمثل الأعلى الذى هو روحه عاجزان عن إشعال جذوة الإيمان والحب والحماسة فى النفوس . كلا إن العلم الذى يسوقنا إلى طلب الحق دون أن نقف عند حد ، لايمت بسبب إلى حكمة هزيلة أو حكمة تُعنى بالمصالح الخسيسة ، و إنما هو من بين المبتدعات التى حققتها جهود الناس أكثرها ثراء ، وأشدها إثارة ، وأعمقها « تديّننا » : إنه يبدل أحلامنا آمالا و يحملها إلى اللامتناهى .

---

(١) أنظر فى « كراسات جماعة العقليين » (عدد مارس سنة ١٩٣١ ص ٨٣) خاتمة المحاضرة القيمة التى ألقاها پول بكرل : « من أين تأتى الحياة » ؟ ـ المؤلف

Voir dans les « Cahiers rationalistes » de mars 1931, p. 83, la conclusion de la belle conférence de Paul Becquerel : «D'où vient la vie ?»

فهرس الكتاب

الصفحة

تصدير ٥

خطاب المؤلف إلى المترجم ١١

كلمة للمعرب عن الأستاذ بابيه ١٢

مقدمة خاصة للطبعة العربية (بالفرنسية) ١٧

مقدمة خاصة للطبعة العربية (بالعربية) ٢٢

الفصل الأول : أخلاق العلم ٢٧

الفصل الثانى : هل العلم مناوئ للأخلاق ؟ ٣٢

الفصل الثالث : هل العلم غريب عن الأخلاق ؟ . . . ٤٥

الفصل الرابع : أخلاق العلم ٦٠

الفصل الخامس : كرامة الفكر ٧٠

الفصل السادس : مبدأ الوفاق ٨٢

الفصل السابع : مبدأ الحرية ٩١

الفصل الثامن : مذهب الحتمية والتسامح ١٠١

obeikandi.com

الصفحة

الفصل التاسع : شرط النجاح ١٠٩
الفصل العاشر : بهجة المعرفة . بهجة الاتحاد . بهجة الانطلاق ١١٤
الفصل الحادى عشر : الاعتراض الأكبر ١٢٩
الفصل الثانى عشر : الملحمة الإنسانية ١٤٣

obeikandl.com

نفائس الفلسفة الغربيـــــة

صدرها الدكتور عثمان أمين

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

سلسلة من الكتب غايتها نقل طائفة مختارة من نصوص الفلسفة الغربية إلى اللغة العربية .

ظهر منها :

« دفاع عن العلم » للأستاذ ألبير بابيه . تعريب الدكتور عثمان أمين

وسيظهر منها قريباً :

« ما بعد الطبيعة » لأرسطو

« خواطر » لمرقس أوريليوس

« تأملات ميتافيزيقية » لديكارت

« مبادئ الطبيعة البشرية » لبركلى

« مباحث فى العقل الإنسانى » لهيوم

« محاورات فى الدين الطبيعى » لهيوم

« مقدمات لكل ميتافيزيقا مستقبلة » لكانت

« التربية » لهربرت سپنسر

« علم الجمال » لبندتو كروتشه

« مشكلات الفلسفة » لبرتراند رسل

« أفلاطون » لديبس ، الخ ...

obeikandi.com

للمعرب

١ — «إحصاء العلوم» للفارابى ، مع مقدمة وتعليقات (مكتبة الخانجى القاهرة سنة ١٩٣١)

٢ — L'Humanisme de F.C.S. Schiller (مطبعة المعهد الفرنسى) القاهرة سنة ١٩٣٩

٣ — « ديكارت » (سلسلة « أعلام الفلسفة ») مكتبة النهضة القاهرة سنة ١٩٤٢ (الطبعة الأولى)

٤ — « خصائص الروح الفرنسى » (دار النشر هوروس) القاهرة سنة ١٩٤٤

٥ — « محمد عبده » (سلسلة « أعلام الإسلام ») دار إحياء الكتب العربية . القاهرة سنة ١٩٤٤

٦ — « شخصيات ومذاهب فلسفية » (سلسلة « مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ») القاهرة سنة ١٩٤٥

٧ — Muhammad Abduh : Essai sur ses idées phioso - phiques et religieuses. (Imprimerie Misr, Le Caire 1945

٨ — « الفلسفة الرواقية » (سلسلة « أعلام الفلسفة ») مكتبة الخانجى القاهرة سنة ١٩٤٥

٩ — « ديكارت » (سلسلة « أعلام الفلسفة ») دار إحياء الكتب العربية . القاهرة سنة ١٩٤٦ (طبعة ثانية مزيدة ومنقحة)

١٠ — «دفاع عن العلم» تأليف الأستاذ ألبير بابيه . ترجمة مع مقدمة وتعليقات (سلسلة « نفائس الفلسفة الغربية ») دار إحياء الكتب العربية . القاهرة سنة ١٩٤٦

obeikandl.com

TEXTES DE PHILOSOPHIE OCCIDENTALE
traduits en arabe
Collection dirigée par Osman Amine
Maître de Conférences à la Faculté des Lettres du Caire.

ALBERT BAYET
Professeur à la Sorbonne

La MORALE de la SCIENCE

traduction arabe par
OSMAN AMINE
Docteur ès Lettres,

Editeurs
La Renaissance des Livres arabes
Le Caire 1946

obeikandl.com